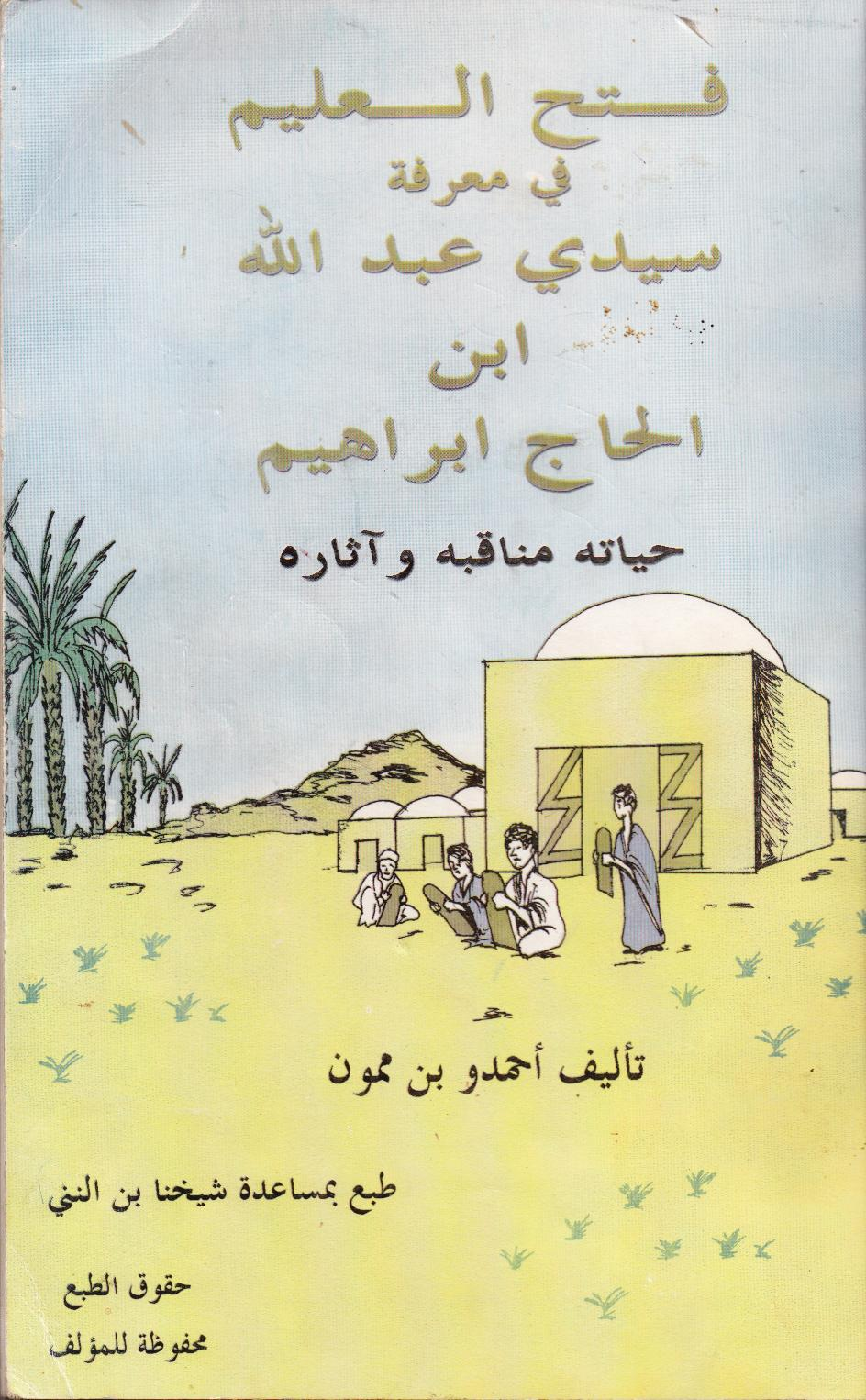


فتح العليم

في معرفة

سيدي عبد الله ابن الحاج ابراهيم

حياته مناقبه وآثاره

تأليف أحمدو بن ممون

طبع بمساعدة شيخنا بن النني

فتح العليم

في معرفة

سيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم

حياته، مناقبه، آثاره

تأليف : أحمدو بن ممون

طبع بمساعدة شيخنا بن النني بن مولاي الزين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأمته أفضل الأمم.

وبعد : فإني رغبت في جمع ما أستطيع جمعه من مناقب وآثار العلامة سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي نسبا الشنقيطي إقليما، التجكجوي منشأ ومستقرا وأملي في الله راسخ بأنه سييسر لي ما أبتغي من أخبار هذا العلم الشامخ الذي لم تتناوله الأقلام بما فيه الكفاية، رغم الأطروحات التي قدمت عند أشياء، لا تخلو أما من أغلاط في بعض الحقائق، وأما من تقصير قد لا يكون متعمدا في بعض الجوانب التي لم تتوفر لها المصادر الكافية.

وسأحاول في هذه الدراسة أن أتلافى ما أمكن تلافيه من تلك الأغلاط، وأن أكمل ما أمكن استكماله من تلك النواقص، ولو أني أعلم أني سأتعرض لما تعرض له من سبقوني إليه، من شح في المراجع، وغلو في عدم التدقيق، لكنني أعد القارئ الكريم، بأني سأبذل فوق طاقتي حتى تكون هذه الدراسة شاملة لما من شأنه أن يضع بين يديه صورة كاملة أو أقرب إلى الكمال عن هذا الرجل الذي اكتفى الناس بشهرته عن البحث عن معرفته فهو سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم اسم أغنت شهرته عن التعريف به، خاصة أن من كتبوا عنه لم يتوسعوا في كتاباتهم حتى يدرسوا عصره الذي عاش فيه دراسة تامة اجتماعية وسياسية واقتصادية، وعلمية، وحتى عسكرية، وكلها مجالات خصبة للدراسة والتحليل وهي بحد ذاتها مؤثرة في شخصية من يعيش فيها، ومتأثرة به كائنا من كان، تأثيرا قد يعين الدارس في دراسته، والباحث

في بحثه، وتسلط الضوء للقارئ في قراءته، وتبرز الملامح العامة لمجتمعه، ووطنه.

إن بلاد شنقيط المعروفة اليوم باسم موريتانيا، لا يوجد بها من يجهل سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، وقل فيها من يعرفه، فالعامل الأمي يعرف اسمه ومكانته العلمية والدينية، والفلاح الأمي يعرف اسمه ومكانته العلمية والدينية، ولكن الذين يعرفون عنه أكثر من هذا هم القليلون، هم الأوساط المتعلمة ممن يعرفون – اصطلاحا – بالزوايا الذين يصدق عليهم أو على الكثير منهم – تجوزا – تلاميذه أو تلامذة تلامذته لأنه يعتبر أحد رواد النهضة العلمية والأدبية والدينية التي عرفها هذا القطر في القرنين الثاني عشر، والثالث عشر الهجريين السابع عشر والثامن عشر المسيحيين، وهو في الحقيقة أبو المدرسة الأصولية الأولى في هذا القطر فلم يكن لعلم الأصول قبله مرجع يعتنى به مثل تآليفه فيه خاصة مراقي السعود وشرحه نشر البنود في علم الأصول، وطرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض مسائل العمل، فيما يتم به العمل، اعتمادا على القواعد الأصولية، وطلعة الأنوار وشرحه هدى الأبرار في مطلع الحديث، وغرة الصباح، وشرحه نيل النجاح على شرطي البخاري ومسلم في صحة الإسناد والعزو، ونور الأقاح، وشرح فيض الفتاح، في علم المعاني والبديع والبيان كما قال هو:

نظمت فيه الدر في سلك منيع   من المعاني والبيان والبديع

والحقيقة أن أحدا لا يمكن أن يكابر في ذلك لأنهم يقولون (لا مكابرة في محسوس) بيد أن رغبتي في الكشف عن الكثير من الجوانب الغامضة من حياة هذا الرجل تدفعني لأن أنقب عن الأشياء التي لم يتطرق إليها من سبقوني مع اعترافي لهم بفضل السبق، لكن صلتي بالرجل، وبمن أدركتهم من أبناء أبنائه[1] وأحفاده[2] قد تمدني بالنتف التي لم يتطرق إليها من كتبوا عنه فالنقل الشفهي – و إن كان لا يخلو من عدم الدقة في بعض الجوانب – فإنه يعطي الكثير من الأخبار والحكايات

---

[1]. محمد الأمين بن محمد احيد، وأخته رقية، وزينب بنت النمين
[2]. محمد المختار بن محمد الحسن الذي يقول نحن سيديون

المهمة في مثل هذه الدراسات، ولا يمكن للباحث إلا أن يسجلها، خاصة منها ماله شواهد ثبتت صحته وتفيد في إثراء بحثه وتصحح الكثير من الأخطاء والأغلاط والتحريفات التي لا مناص من الوقوع فيها في مثل هذه الحالات، والباحث حاطب ليل، يأخذ الغليظ والرقيق، فسأحاول ما استطعت أن أتحرى الصدق وأمانة النقل وصحة الخبر، وتواتر المخبرين ملتمسا طريقي إلى البحث في نطاق العناوين المنضوية تحت المراحل التالية :

أولا : المرحلة الأولى :

ونتحدث في هذه المرحلة تحت العناوين التالية :

أ. فترة مخاض بعد حرب شنقيط وشرببه

ب. الرحلة من شنقيط إلى تججك

ج. مولده ونشأته

د. نشأة الإمارات الحسانية وانعكاساتها

هـ. الأحداث التي عاصرت حياته، وتأثر بها و أثر فيها

و. طلبه للعلم في مسقط رأسه وفي الوطن

ز. أشياخه في وطنه

ثانيا : المرحلة الثانية :

ونتحدث في هذه المرحلة تحت العناوين التالية :

أ. رحلته إلى الخارج وملابساتها ونتائجها

ب. أشياخه في المغرب، وملابساته فيه

ج.عودته إلى المغرب من المشرق وملابساتها

د. عودته إلى الوطن وتأثيراتها

ثالثا : المرحلة الثالثة :

ونتحدث في هذه المرحلة تحت العناوين التالية :

أ. مدرسته العلمية ودورها التاريخي

ب. مميزات مدرسته

ج. الطوالب الأربعة

د. تآليفه الكثيرة

هـ.ورعه وعبادته

و. خروجه من تججك إلى البادية و أسبابه

ز. مكانته العلمية

ط. مكانته السياسية والاجتماعية

ح د. ابوه الإمام الحاج ابراهيم

وط. خريجو مدرسته

دم. أسرته الخاصة

هـ.و. آثاره العلمية

زط. خطبه

ظ. عودته إلى تجكجة من البادية

وبشيء من التفصيل والبحث المثاني وسبر أغوار الأحداث وما تفرزه من نتائج، وما يتلقاه الرجل خلالها من صعوبات...الخ كل ذلك أساسا للبحث والتحقيق والخروج بمعلومات أقرب إلى الكمال. بعيدا عن التهويلات والحكايات الخيالية، وما شابها من تزييف وغلو أصحاب الأغراض الخاصة.

من جهة، وما نسجته عناكب الحكايات الغير دقيقة من جهة أخرى، أكون قد وضعت الحقائق في نصابها وأمطت اللثام عن هذا الوجه الناصع البياض لعلم من أعلامنا البارزين عاقدا العزم على متابعة البحث مع سلسلة الأعلام الشناقطة واحدا تلو الآخر إن شاء الله تعالى، سائلا المولى جلت قدرته أن يجعل عملي خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفعني به في حياتي وبعد مماتي وأن ينفع بي وبه، ويرزقني

القوة والتوفيق حتى أفعل مع كل واحد منهم ما فعلته مع صاحبنا هذا راجيا منه تعالى أن يحشرني في زمرتهم و يلحقني بعباده الصالحين إنه ولي ذلك والقادر عليه وهو القوي المتين، والموفق والمعين.

أحمدو بن ممون

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، وفضله على سائر الأكوان، والصلاة والسلام على صفوته من خلقه سيدنا محمد الذي جاء بالصدق وهو الحجة والبرهان، صلاة دائمة ما تعاقب الملوان، وبعد :

لما كان التعريف بالعلماء وأحياء تراثهم والإشادة بمآثرهم، وتخليد مناقبهم من شأن أولى الأقلام والأذهان، وإن كنت عن هؤلاء نائي المكان، ولست على مائدتهم من المتطفلين رغم إني إلى الحسو من سلسبيلها ظمآن، و إلى التغذي من ثمراتها جشع جوعان.

أردت أن أعرف بالغطمطم[1] الزاخر، معدن اللآلئ والجواهر، حامل لواء المحامد والمآثر، سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، ذي العلم العميم، والذوق السليم، والنفع العظيم، مستعينا بالله الكريم، ومستمدا منه تعالى التسديد والتقويم، وعليه اعتمادى في البدء والتتميم، فهو الموفق وهو الهادي إلى الطريق القويم، فسيدى عبد الله بن الحاج ابراهيم، ليس إلا كما قال شيخنا الشيخان رضي الله تعالى عنه.

ليس ما قد يقال فيه بمغن   والذي لا يقال ليس يقال

فهو هبة من الله تعالى لهذا الوطن، ولتلك الفترة التي وهب الله فيها لبلاد شنقيط جهابذة من العلماء الأجلاء هو من مشاهيرهم، أو على الأصح من روادهم في نشر العلم بهذه الربوع، فقد نشر الله تعالى على يديه العلم في ناحية من العالم العربي الإسلامي نائية عن منابع الحضارة ومراكز الأعمار، تحيط بها الصحارى والبحار، كانت في أمس الحاجة إلى من يدخل إليها قبسا من الأنوار، فالظلام فيها ضارب الإطناب والأسوار، فلم يغمطه أهلها حقه من الإجلال والإكبار، فقد اعترف بفضله في هذا الميدان سكان البوادي والأمصار، وقد اعترفوا له بالسبق إلى علم الأصول،

---

[1]. الغطمطم الزاخر : البحر الممتلئ بالجواهر واللآلئ.

وعلم المعاني والبيان والبديع، وعلوم الدين واللغة العربية، وعلم الأنساب، وفقه النوازل، خاصة منها تلك التي لم تتطرق إليها كتب الفقه، لكونها من الأقضية المستحدثة كقضية ونكاله، وقضية ماء الغدير المختلط بأبوال وأوراث الماشية، ونحو ذلك، مما أجاب فيه على الأسئلة الكثيرة التي شفى فيها الغليل، وأبرأ منها سقم العليل، وأزال عنها اللبس، وأقام عليها الدليل ومن ذلك ما تطرق إليه من التحقيق في الأنساب لأن سكان هذه المناطق منحدرون في غالبيتهم من أصول عربية، قطعها النأي وبعد الدار عن أصولها وصارت تنتمي انتماءات قد لا يكون من السهل التحقق من صحة بعضها، فاهتم بهذه الناحية، وأفاد فيها وأجاد وترك مراجع يوثق بها في هذا الميدان.

فكان من أولئك الأفذاذ الذين تركوا بصماتهم بارزة على جبين بلادهم بما أنجزوه لها عبر حقبها المتلاحقة وعبر أحداثها المتسابقة فيعتبرون بما أنجزوه عمالقة تتحدث عنهم الأجيال القائمة، وتحدث عنهم الأجيال القادمة، فيبقى ذكرهم على الألسنة الناطقة، سواء أكانوا مغاربة أو مشارقة، أدباء أو فقهاء أو مناطقة وسواء أكانوا عربا أو عجما أو أفارقة.

ولعمري لقد أنجبت بلاد شنقيط التاريخية أعلاما شناقطة دوخوا البلاد الإسلامية شرقها وغربها بما خلدوه من العلوم النافعة فكانت شموس علومهم في كل قطر ساطعة. فما أن تقوقع العالم الغربي الإسلامي في عصر الانحطاط الفكري والعلمي وتعاقبت على الدولة الإسلامية دويلات ضعيفة مزقت وحدة العالم الإسلامي، وتهاوت فيها عروش القيم الإسلامية والآداب العربية والعلوم الدينية، وترامى حكامها في أحضان الملذات والشهوات، و إعجاب كل ذي رأي برأيه واستبداد كل ذي قطر بقطره، حتى تفجرت النهضة العلمية الإسلامية، والأدبية في القطر الشنقيطي على الحدود الغربية للعالم الإسلامي[1] تلك النهضة التي حمل مشاعلها فطاحلة من العلماء الشناقطة[2] فأضاءت بنورها أرجاء العالم الإسلامي، شرقا، وغربا، وجنوبا وشمالا، فكانت المنطقة ما بين الساقية الحمراء شمالا، وبلاد

---

1. موريتانيا الحالية (اسم سماها به المستعمر الفرنسي)
2. سيدي عبد الله صاحبنا، أحمد بن ألمين، ابن اتلاميد، ابن مايابى...الخ.

السودان جنوبا، وأدغال الصحراء الغربية شرقا، وشواطئ المحيط الأطلسي غربا مهدا لها، في القرون الثلاثة الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من الهجرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، الموافقة للقرون : السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر من الميلاد المسيحي، وهي قرون لا تزال الكنيسة المسيحية تتحكم فيها في العالم الغربي بإعجام العين، والأباطرة الغربيون يخضعون تحت نيرها، وبلادهم يعصف بها الجهل والركود الاقتصادي والسياسي والاجتماعي...الخ.

في هذه الحقبة التاريخية بالذات، وفي ظل هذه الأوضاع المتردية التي تحيط بها الصعوبات في جميع المجالات، كان التاريخ الشنقيطي في فترة مخاض، أنجب منها هؤلاء الاعلام ومن بينهم صاحبنا الذي سنتحدث عنه إن شاء الله تعالى ضمن العناوين المشار إليها في تقديم هذا الكتاب، وهي العناوين المقرر نشر طيها في هذا البحث، نشرا مرتبا.

أولا : المرحلة الأولى

اشتعلت نار حرب أهلية في شنقيط بين أبناء رجل واحد من العلويين يعرفون – اصطلاحا – بالبيظ، والكحل[1] دامت قرابة ثلاثين سنة، تتخلها الهدنة بين الفينة والأخرى، كانوا يقتتلون الليل والنهار، لكنهم لا يغدر بعضهم ببعض، ولا ينتهبون الأموال، وظلت سجالا بينهما، فلم يتمكن أحدهما من هزيمة الآخر حسبما ترويه المصادر[2] الموثوق بها وكانوا – على أسلوب العرب الأقدمين – في تجارتهم يمارسون أسلوب العيرالعربية (رحلة الشتاء و الصيف) وإذا ما استعدت العير للانطلاقة نحو الجنوب (بلاد السودان) بحثا عن الميرة وحاجات الجنوب، تكون القافلة محملة بسبائك الملح من سبخة (اجل)، وربما يصل عدد جمالها إلى عشرات الآلاف، وفي هذه الحالة يرافقها جيش من حملة السلاح لحراستها من قطاع الطرق

---

[1]. تسمية أطلقها رجل على ابني أخيه اليتيمين. إذ حقد عليه أحدهما فسماه الكيحل، وحن عليه الآخر فسماه البيظ. وذلك اشتقاق التسمية.

[2]. صحيح النقل في علوية ادوعل وبكرية محمد قل لسيد عبد الله بن الحاج ابراهيم.

المنتشرين في تلك الأصقاع، ففي مرة من المرات خرجت عير من شنقيط عدد جمالها اثنان وثلاثون الف جمل[1] محملة بالملح (20) ألفا منها لأهل شنقيط و (12) ألفا منها لأهل تيشيت، وباعت كلها في زارا[2] فتعجب الناس أي المدينتين اعمر؟ شنقيط أم زارا.

وكان أن خرجت عير البيض في فترة الهدنة التي كانوا فيها يوقفون الحرب، ويتفرغون لتجارتهم وشؤونهم الأخرى آمنين من بعضهم البعض، فلا يعتدي فيها أحد على الآخر، فرافقها جل المسلحين من البيض على العادة، ولم يبق في المدينة منهم سوى النساء والأطفال والشيوخ. وكان من بينهم الجد الثاني لصاحبنا، الإمام محنض احمد، وهو شيخ ضرير مقعد يوصف بالعلم والصلاح وسداد الرأي، فانتهز فرصة غياب الشباب المتحمسين وقيام الهدنة فقرر – من جانب واحد– الخروج بهذه الذراري والعائلات بحثا عن مكان صالح للاستقرار، خوفا على عشيرته من الفناء المطلق كما حدث في مدينة (نتيكى) القريبة من شنقيط، إذ لا تبعد عنه إلا نحو أربعين كيلومتر إلى الشمال الشرقي التي أفنتها الحرب الأهلية حتى تركتها أثرا بعد عين، وصار يضرب بها المثل الشعبي (آخلاو خلية نتيكي) لأنهم لم يكن من بينهم رجل رشيد يستطيع بوسيلة ما إن يوقف الحرب قبل أن تاتي على آخرهم، كما وقع لهم.

لكن الإمام محنض أحمد كان كما تقول الحكمة المأثورة (السعيد من وعظ بغيره) خرج هذا الشيخ بمساعدة رشداء قومه يقودهم، ويشتم لهم تربة كل واد نزلوا به، ورأوا أنه صالح للغرس، فكانت في أيامهم النخلة والدار توأمتين أرضعتا بلبان واحد متلازمتين. والظاهر أن هذا الشيخ لم يأخذ قراره هذا إلا بعد أن استنفد كل المحاولات السليمة مع قومه عساه يوقف الحرب بين الفئتين المتقاتلتين، وهما أبناء رجلين أخوين توأمين من أب واحد، وأم واحدة، فعلم أنه لا مفر من أحد أمرين أحلاهما مر، فإما أن يقتتلا حتى يفني أحدهما الآخر، أو يفنيا معا وإما أن يخرج بمن رضي معه بالخروج، فالاحتكام إلى العقل وإثارة عواطف الرحم والقربى

---

1. صحيح النقل في علوية ادوعل، مرجع سبقت الإشارة إليه.
2. مدينة في جمهورية مالي تعرف اليوم بالنوارة.

والرجوع إلى كتاب الله {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول} كل ذلك لم يفلح في وقف نزيف الدماء بينهما، فاختار الحل الأخير وقطع الطريق على دعاة الشر من الفريقين. فانتهز فرصة الهدنة وغيبة المسلحين – كما قلنا – لتنفيذ مشروعه المبارك مشروع الهجرة قال الشاعر.

وفي الأرض منا للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلا متحول

كان من الصعب أخذ قرار بهذا الرحيل سيما تنفيذه، لكن الرجل على ضعفه الجسدي، وتقدمه في العمر، قوي الإرادة والتصميم فاتفق رأيه، ورأي الرشداء من قومه، وعلى رأسهم ابن خالته الأمين بن حروش الذي كان وقتها الزعيم السياسي للبيض فاتفق رأي الزعيمين : الزعيم الديني الإمام محنض احمد والزعيم السياسي الأمين بن حروش وبدأت الرحلة المباركة، فالهجرة لها بركة.

الرحلة إلى تجكجة :

في سنة 1070 هـ موافق 1660م خرجت القافلة يقودها الشيخ الضرير الإمام محنض أحمد متجهة جنوبا تبحث عن مكان يصلح لزراعة النخيل الذي كان أهم الأنشطة الزراعية في ذلك الوقت، عابرة تلك الصحراء التي تتخللها أودية كثيرة، قد يكون منها ما يصلح للغرس في نظرهم، لكن الشيخ يطلب منهم حفنة من بطحاء كل واد أعجبهم، فإذا اشتمها لم يرض لهم بالمقام فيه حتى نزلوا واديا أعجبهم كثيرا لغرس النخيل فيه، فقال لهم عندما اشتم تربته، هذه بقعة غرس لكنها بقعة شر ولستم بمستقرين فيها فقالوا – حسبما ترويه الروايات المتواترة– لقد أتعبنا هذا الشيخ الأعمى، يريد أن يحرمنا من هذا الوادي الذي لم نر واديا مثله.

أقطع بصدق خبر التواتر وسو بين مسلم وكافر

فأخذوا حفنة من ترتبته، وحملوا الشيخ على نعشه على أكتاف أربعة عبيد له هم : بتشام، بركب، كمش، والعبد الأحمر وخامسهم يساعدهم هو المسمى انيم. وتابعوا رحلاتهم حتى وصلوا إلى واد يسمى عيون البقر هو تجكجة الحالية وفور نزولهم فيه أخرجوا له تلك التربة المحمولة منذ أيام فاشتمها وقال لقد عدتم إلى الوادي الذي

رحلتم عنه منذ كذا فعرفوا أنهم لا يستطيعون مغالطته، فأخذوا له تربة وادي تجكجة الحالي فاشتمه وقال : انزلوا هذه بقعة خير وبقعة غرس، وابنوا المسجد في مكاني هذا، وبنوا فيه المسجد الذي نقله ابن ابنه عمار بن الحاج محمد إلى محله الحالي وهو المسجد العتيق القائم اليوم، ولا تزال الإمامة فيه دولة بين أبنائه يتوارثونها وهذه لائحة بأسماء أبنائه الذين تعاقبوا على الإمامة :

1. الإمام عبد الرحمن بن الإمام محنض احمد (أول إمام للمسجد بعد بنائه)
2. الحاج ابراهيم ولد الامام عبد الرحمن
3. الإمام ولد الحاج ابراهيم
4. سيد عبد الله ولد الحاج ابراهيم
5. الامام أحمد ولد الامام ولد الحاج ابراهيم
6. ابراهيم ولد الامام ولد الحاج ابراهيم
7. محمد فال ولد نافع ولد الامام ولد الحاج ابراهيم
8. محمد عبد الرحمن ولد محمد فال ولد نافع
9. المصطفى ولد محمد عبد الرحمن ولد نافع
10. محمد محمود ولد صاليحي
11. بوب ولد الطالب
12. محمد محمود ولد محمد ولد صاليحي

فبدأوا الغرس والبناء في آن واحد، وبعد فترة غير طويلة نزلت العير وهي عائدة من بلاد السودان، غير بعيد من القرية الجديدة. فرأوا الأضواء وسمعوا الأصوات في محل مروا به منذ شهرين أو ثلاثة ولا أحد فيه فتساءلوا وأرسلوا واردهم، فكانت المفاجأة عندما وجدهم أهله فقال يا بشراي هؤلاء أهلنا، وبينما هم في أخذ ورد بين رأي دعاة الشر الذين يريدون غزو شنقيط ودعاة الخير الذين يأبون ذلك، إذ وصل رئيس أهل شنقيط الذين بقوا فيه عبدي بن المختار، وكانت أخته زوجا لرئيس هؤلاء الأمين بن حروش، فتسلل في وقت صلاة العشاء ودخل عليها والحال أن زوجها نحو المسجد لصلاة العشاء فخبأته في جانب من البيت، وانتظرت حتى جاء الرجل وطلب طعامه فاشترطت عليه مقابل إعطائه له أن يحقق لها طلبا

ستتقدم إليه به فقال لها : أي طلب هذا ؟ فامتنعت عن الإفصاح به ما لم يعطها موثقا منه بأن يحقق لها مطلبها مهما كان نوعه فقال لها لك هذا ولو كان أخوك اعبيدي بالتصغير فقالت إنه هو إنه الأمان لأخي عبدي فقال لها هو لك فخرج عبدي من مخبئه وعقد معهم صلحا استمر حتى اليوم...

ومن هنا بدأت عملية الاستقرار بغرس النخيل وبناء الدور فكانت النخلة الشجرة العربية التي تحل أينما حل العربي فهي عمته قال صلى الله عليه وسلم : "اكرموا عمتكم النخلة بدفن نواها" أو كما قال. وقد نظمه أحدهم فقال :

وجبرئيل راس ادم حلـــق وظفره قلم قال من ســـبـــق

و بعد ذاك الدفن منه وقعـــا والنخل من مدفونه قد زرعــا

فداك قول المصطفى نبيكـم لقط الحديث اكرموا عمتكـم

النخل حال الدفن للنوى على ما في بدائع الزهور نقـــلا

وقد تأنس بها عبد الرحمن الداخل بن معاوية صقر قريش عندما رأى نخلة لأول مرة بعد فراره إلى الأندلس، في غرب أوروبا فقال :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلـــة تناءت بأرض العرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول ابتعادي عن ذوي وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبـــة فمثلك في الإقصاء و المنتأى مثلـــي

فحيثما يوجد العربي توجد النخلة والناقة.

هكذا بدأ القوم استقرارهم في هذا المكان، وهكذا بدأت عمارة تجكجة في أعقاب حرب شنقيط، وهي – حكما- متزامنة مع شربب 1644 – 1674 تلك الحرب التي استمرت قرابة ثلاثين سنة كما هي الحال في سابقتها، فهما متزامنتان، وانعكاساتهما متزامنتان، ففي منطقة (الكبلة) كانت نار حرب مشتعلة بين أولاد امبارك، وأبناء رزك بزعامة أوديك لقرع زعيم أولاد امبارك وسيد ابراهيم لعروسي زعيم أبناء رزك في منطقة يتحكم الصمغ والتنمية والمغارم، في اقتصادها، تلك المغارم التي يضعها أبناء حسان على اللحمة وبعض الزوايا وهي التي أدت- بالتالي – إلى اشتعال نار شربب في نفس المنطقة بين الزوايا بزعامة ناصر الدين الديماني،

وحسان المتحالفين ضد الزوايا، والتي أدى فيها الغدر إلى هزيمة الزوايا، وخضوعهم لخصومهم، ولجوءهم إلى الانكباب على العلم كملجأ أخير قد يؤدي في النهاية إلى التحكم في الأمور الدينية في مجتمع مسلم 100% سواء الحاكم منه والمحكوم وهو ما تم بالفعل.

ولادة سيدي عبد الله

في خضم هذه الأحداث المحتدمة والصراعات المستعرة على الساحة الوطنية في جميع نواحيها، ولد هذا الطفل الذي يخبئ له القدر حياة مليئة بالمثيرات، أولها اليتم، فقد مات أبوه ولما يبلغ سن الفطام. هذا الطفل الذي تمثلت فيه من وراثة جده رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع وراثات هي :

1. اليتم، فقد عاجله اليتم كما عاجل رسول الله (ص) وللرسول المثل الأعلى.
2. حاربه قومه عند ظهوره كما وقع لرسول الله (ص)
3. هاجر من أحب البلاد إليه حاملا دعوته كما حدث له (ص)
4. دفن معه في بيته أصحابه كما وقع له (ص)

وسنتحدث عن هذا البيت عند تعرضنا لكراماته إن شاء الله تعالى، ثم التعلم في ظروف الله أعلم بما فيها من المكابدات في طلب العلم، فقد قال هو :

والعلم لا ينال دون نصب   وطول صحبة وذل الطلب

ولاشك أنه عاش هذه الصعوبات كلها، فقد تنقل بين مناطق الوطن طلبا للعلم في مدارسه المختلفة وفي ذلك ما فيه من الأسفار على متون القفار رغم شح الوسائل، وكثرة الأخطار، فالأمن في البلاد السائبة معدوم والأعزل أينما حل مقهور ومظلوم. تصور معي ذلك الشاب المدني الذي لم يبت ليلة واحدة منذ ولادته في البادية، يعقد العزم على التنقل من مسقط رأسه و إخوته وأهله ميمما شطر أرض القبلة مسافة شهر للجمال قد يكون وحيدا في سفره تارة وقد يجد رفقة لا تعرف من هو ولا يعرف هو من هي وحتى الأرض والطريق لا يعرف شيئا من ذلك كله، لازاد له إلا الصبر ولا رفيق له إلا الهمة العلية وقوة التصميم، ولا معين له إلا الله، وكفى بالله معينا ولد هذا الطفل في بيت علم ودين، فأبوه الحاج ابراهيم[1] كان الغاية في الورع والزهد، ومعرفة الفنون بأسرها وكان متقشفا في الملبس، والمأكل، كان لا يأكل إلا دقيق الشعير الملتوت، وكان الغالب عليه الاعتزال عن الناس والتصوف،

---

[1]. الدرر الخالد في مناقب الوالد لمحمد محمود بن سيد عبد الله

وكان عالما جليلا من تلامذة سيدي عبد الله بن محم بن القاضي[1] العلوي وأجازه في مصطلح الحديث ويدل على علمه وفضله وصلاحه أنه هو كان يقول لابنه محمد محمود أرجو من الله أن تكون مثل أبي لا مثلي لأن الناس غلبوني على الدخول في أمور دنياهم فتعين على ذلك. وأما جده الأول فهو الإمام عبد الرحمن[2] وكان موصوفا بالعلم والصلاح فهو أول إمام لمسجد تجكجة، وكان معروفا بمعرفة علوم السر، فكان وهو طفل صغير يضع الجدول للحمامة فلا تقدر على الطيران حتى يمسكها.

وأما جده الثاني فهو الإمام مختنى أحمد الذي تحدثنا عنه بما فيه الكفاية تحت عنوان: الرحلة إلى تجكجة.

لهذا نشأ الطفل مولعا بتحصيل العلم متأسيا بآبائه وأجداده، وكان لوالدته الفضل في تنشئته على حب العلم والولوع به، وحب معالي الأمور، وهو ما حدا به إلى ما آل إليه أمره.

اسمه ونسبه

هو سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم اسم غلبت شهرته عليه لكننا رأيناه يكتب لنفسه عبد الله مجردا من السيادة والظاهر أنه تواضع منه، وقد تكون تسميته ب (سيدي) طارئة عليه بعد عودته من الحج إلى المغرب، فالمغاربة يطلقون اسم سيدي على كل من اتصف بالصفات الحميدة والحاج ابراهيم اسم غلبت شهرته على والده الذي كان اسمه ابراهيم قبل الحج، وقد كان الشناقطة يطلقون لقب الحاج على كل من أدى فريضة الحج لصعوبته في ذلك الوقت ولا يزال الأفارقة حتى الآن يطلقون لقب (اللاجى) على كل من حج وهو تحريف للحاج عندهم لكن سيدي عبد الله و الحاج ابراهيم غلب على كل منهما هذا اللقب وأصبحا يعرفان به وهذه سلسلة أجداده رحمهم الله تعالى إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

---

1. المعروف بابن رازك، وهو لا يحتاج إلى تعريف.
2. مبصر من به عمى لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم
يقول عبد الله نجل برهام ابن الإمام العلوي بن الإمام

سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم بن الإمام عبد الرحمن بن الإمام محنض أحمد بن ينداحمد بن يعقوب بن يندموكي[1] بكاف معقودة بن احمد بن يحي بن علي بن يمج[2] بن يبككر[3] بن كمبان[4] بن جابر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن ابراهيم بن عيسى بن إدريس بن محمد بن يوسف بن عبد النعيم بن زيد بن عبد الواسع بن عبد الدايم بن عمر بن زروق بن عبد الله بن عمر بن سعيد بن عبد الرحمن بن سالم بن غزونه بن عبد الكريم بن خالد بن سعيد بن عبد المؤمن بن أبي زيد بن رحمون بن زكرياء بن القاسم بن يحي بن أبي علي بن عبد الله الكامل بن محمد بن ادريس بن مولاي سليمان بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه العلوي نسبا، الشنقيطي نسبة إلى شنقيط[5] من قبيلة تدعى (إدعول) مشهورة في بلاد شنقيط بالعلم والفضل والتحضر رغم تبدي بقية سكان الإقليم وفيهم يقول شاعر إدابلحسن :

بنو علي ذووا عز و مكرمـــــه — وسؤدد وعلوا بالعلم أزمانـــا
فالعلم علمهم والمجد مجدهـــم — و كان أصلهم من لب عدنانا
لم يحذ حذوهم في المجد غيرهم — ولا أحاشى من الأقوام إنسانا

فهذا الشاعر عمم عليهم هذه النعوت التي نعتهم بها دون تخصيص، وكان لشهادته هذه ما يؤكد صحتها ففي المثل العربي (الحق ما شهد به الأعداء) ففي هذه الفترة كان العداء على أشده بين قبيلتي إدوعل وإداب لحسن اللتين أصبحتا اليوم من أصدق الأصدقاء فيما بينهما والحمد لله رب العالمين.

وتدل هذه الأبيات أيضا على نبل وشرف قائلها إذ لم يمنعه ما ذكرنا من الشهادة لخصومه بما حباهم الله به، لكن العلامة محنض باب بن اعبيد الديماني يقول :

فعمم به في إيدوعل وخصـــصن — بني شيخنا قاضي القضاة تجد مرعــا

---

[1]. يندموكي تفاؤلا له من أمه بالندى، وللوقاية اسمه عبد الله (يندى) (موقي)
[2]. يا أمي جاء.
[3]. يبكي كريرا لقب به لكثرة بكائه من خشية الله.
[4]. كم أبان من غامض الأحكام
انظر تنوير قلوب المسلمين بتاريخ أمهات المؤمنين لمحمد المصطفى بن عبد القادر
[5] تنوير قلوب المسلمين بتاريخ أمهات المؤمنين.

فجدهم أستاذنا تاشمـــش كلهـــم قد ارتضعوا من علمه الخلف والضرعا

وهذا علامة زمانه ومؤرخ أوانه الشيخ فتى[1] بن الحاج يقول :

شنقيط أهله من أبناء علـــــي سليل يحي بن محمد العلــــــى
سليل ابراهيم نجل عيســـــى من ينتمي إلى الفتى إدريســـا
أبوه عبد الله وهو الكامـــــل لا يأمل العلو عنه آمــــــل
نظمت ذا من روضة الأزهـــار في ذكر آل المصطفى الأخيـــار

وهذا علامة زمانه وقطب أوانه الشيخ محمد المامي[2] بن البخاري بن بارك الله الذي هو طود شامخ لم يظهر له مثيل في هذا القطر علما وصلاحا وفضلا يقول فيهم:

بنو علي حوى ملكا زعيمهـم كما تمكن في الشرق الحماديـــن
فلم يزل جاريا ذا في مدنتهـم عرفا لدن يثبت منها الأساطيـــن
وجل الشناجيط يبقى الدهرمثبتها عليهم الزكوات و العرابيــــــن
و هم أولو حسبة لا يهملون لها بحكم تقليد املاك مخازيـــــن
وهم جماعة إسلام مرجحـــة ترضى الظواهر منهم و البواطين
وللترجيح وللتخريج مرتبـــة هل هي واحدة أم هي المئيـــن

فهو إذن علوي نسبا شنقيطي إقليما تجكجوي منشأ ومستقرا كما يقول هو عن نفسه:

العلوي نسبا والوطـــــــن تججك من كل المخوف تؤمـــن[3]

وتججك مدينة مشهورة تقع في الوطن موقع القلب[4] من الجسد فهي في وسطه حسب التقسيم الإداري تحدها من الشرق والجنوب ولايات الحوضين ولعصابه، ومن الغرب والجنوب الغربي ولايتا لبراكنه، وكوركول، ومن الشمال والغرب

---

1. الدلفينية قصيدته المشهورة.
2. غرة الصباح لسيدي عبد الله نفسه.
3. خارطة موريتانيا الجغرافية.
4. نظم وفيات الاعلام لباب بن احمد بنب.

الشمالي ولايتا آدرار وإنشيري، ومن الغرب ولايتا لبراكنه واترارزة، وهي عاصمة ولاية تكانت، وبها ولد صاحبنا وعاش طفولته، وتعلم مبادئ تعلمه قبل رحلته الطويلة التي سنتعرض لها في محلها، والتي استقر بها بعد عودته إلى أن مات بضاحية من ضواحيها تبعد عنها بنحو سنتين ميلا إلى الشرق في واد يسمى القبة، يقول باب بن احمد بيب :

والشيخ عبد الله نجل ابـــــرا	هيم أجل العلماء قـــــدرا
عام ثلاث وثلاثين سنـــــــه	القبة الزهراء صارت مدفنه
أحيا علوم الشرع حتى ظهرت	و أهلك البدعة حتى دثـرت
طود علوم ما له نظيـــــر	يزول وهو لم يزل ثبيـــــر
قد كاد أن يوصف بالترجيـح	لعلمه وفهمه الصحيـــــح
وهو الإمام الحجة العريـــف	له الفتاوى وله التصنيـــف
علم الحديث فيه لا يبـــارى	كأنما نشأ في بخـــــاري

وهذا ناظم نوازله يقول :

ونستعين الله في إحكـــام	نظم أوابد من الأحكـــام
تحسبها مرعية و هي سـدى	يجاوب البوم بمرعاها الصدى
مما به أفتى الفقيه العلـــوي	من كان ذا فهم وفيض مولوي
قلدت عزوه وما به استـــدل	و لم أبال بخلاف من عـــدل

لهذا فإن حياة صاحبنا تزامنت مع هذه الأحداث التي من أهمها :

نشأة الإمارات الحسانية

بدأت الإمارات الحسانية تنشأ في شتى نواحي القطر الشنقيطي (موريتانيا الحالية) في النصف الأول من القرن السابع عشر المسيحي الحادي عشر الهجري، واستمر ظهورها تدريجيا حتى اكتمل نظامها كإمارات مع بداية القرن الثامن عشر المسيحي الثاني عشر الهجري في مناطق القبلة، وآدرار، ولبراكنه...الخ فاستحكمت إمارة

لبراكنه بزعامة نقماش بن عبد الله بن كروم، وابنه هيبه من سنة 1682 لغاية سنة 1828 ثم ابنه احمد الأول من سنة 1828 لغاية سنة 1841م ثم سيد اعل الثاني من سنة 1893 حيث أوشك التاريخ الاستعماري على الظهور.

كما تأسست إمارة اترارزة بزعامة هدى بن أحمد بن دمان وهو الذي رثاه ابن رازكه بقصيدته المشهورة ومطلعها :

هو الموت عضب لا تخون مضاربة وكاس زعاق كل من عاش شاربه[1]

وكانوا يصفونه بأنه قائد حربي أكثر منه زعيم سياسي مع إطلالة النصف الأول من القرن الثامن عشر، والنصف الأول من القرن التاسع عشر على يد اعل شنظورة بمساعدة سيدي عبد الله بن محم بن القاضي العلوي المشهور بابن رازكه[2] وكان موت اعل شنظورة سنة 1727 وتبعه المختار بن اعمر سنة 1771م ثم محمد لحبيب سنة 1860 حتى سنـــة 1871، ويعتبر بن الديد آخر أمرائها قبل الاحتلال، الفرنسي، وكان ابن الديد بطلا مغوارا قاوم الاستعمار الفرنسي مقاومة مستميتة، وهزمه في عدة معارك من بينها معركة لكويشيشي المشهورة، وغيرها[3].

كما تأسست إمارة تكانت التي هي بيت القصيد في هذه الدراسة[4] لصلة صاحبنا بها، فقد عاش في خضم أحداثها، وتأثر بها وأثر فيها فهي الإمارة الوحيدة التي كان صاحبنا حجر الزاوية في إرساء قواعدها وخاض خضم أحداثها، وكان السبب الرئيسي في انتصار امحمد شين على تحالف المغافرة في حصار (احنيكات بغداده) الشهير 1778 ضد إدوعيش، ويضم هذا التحالف أولاد امبارك، أولاد الناصر لبراكنه، وغيرهم. حيث طلب المغافرة من إدوعيش أحد أمرين إما أن يضعوا عليهم الجزية مغرما سنويا، وإما أن يخرجوهم من تكانت فاجتمع رأي رؤسائهم على أن ياتوا للشيخ لمرابط سيدي محمود في آخر أيامه، ويطلبوا منه أن يشد

---

1. لا يضر تذكير الكاس هنا لأي العرب تذكر ونونت مالا يعقل مع ضرورة الشعر.
2. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.
3. موسوعة المختار بن حامد.
4. إمارة إدوعيش باب بن الشيخ سيديا، وغيرها.

أزرهم ويدعو لهم بالنصر على أعدائهم فقال لهم : لم تعد لي قدرة على إيوائكم لكني أشير إليكم بان تذهبوا إلى ذلك الشاب العلوي المدعو سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم فسيكون له شأن عظيم فإن قبل منكم ما جئتموه به وتعهد لكم على الله بشيء فسيكون ذلك، فاذهبوا إليه، واقبلوا له بالشروط التي سيشترطها عليكم فقاموا من فورهم، وهم رؤساء قبائل إدوعيش وعلى رأسهم امحمد شين بن بكار بن اعمر، وابنه محمد، و اعلنبكه بن اسويد والتشنبي بن اعمر بن امحمد بن حزن وغيرهم بن رؤساء إعيش. واتوا إلى سيدي عبد الله، وكان قد حدد يوم الأربعاء لمقابلات الناس فكلف تلميذا له بإيوائهم وإكرامهم حتى يعقد معهم مجلسا في اليوم المحدد لكنهم لما استبطأوا لقاءه بعد مكث يوم أو يومين أرسلوا له أحدهم وهو التشيتي بن امحمد بن خون وكانت لهذا صداقة خاصة مع عائلة أهل الحاج ابراهيم، فأمر بإدخاله عليه فقال : ايها الشيخ إن خيولنا في مرابضها منذ كذا ونريد أن تعجل لنا باللقاء فأمر بإحضارهم، وبعد أن ذكروا له مهمتهم، اشترط عليهم شروطا اعتبروها مجحفة بهم، وأصعبها عليهم تحكيم الشريعة الإسلامية في كل ما يشجر بينهم، وفي كل ما شجر بينهم وبين رعاياهم، وإعطاء حق المساواة أمام الشرع، فالناس في نظر الشرع سواسية لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح. فإذا افترضنا أن خصاما حدث بين أمير و أحد رعاياه فإنهما سيجلسان أمام القاضي على الأرض ويسمع من كل منهما ويعطي الحق لصاحبه، بصرف النظر عن أي فارق بينهما، فإن قبلتم بالخضوع لأمر الله وتحكيم شرع الله على أرض الله في خلق الله فتوقفوا عن القبول بهذه الشروط وأصعبها عليهم المساواة بينهم وبين رعاياهم، فانبرى الشاب من بينهم، ولم يكن من عاداتهم أن يتكلم الصغير قبل الكبير خاصة إذا كان أبوه أو أخوه الأكبر أو ابن عمه، فقال أهيه أهيه، وهي كلمة بربرية معناها نعم نقبل بهذه الشروط، فوضع الشيخ يده على رأسه وقال بارك الله فيك فكانت البركة فيه وفي أبنائه إلى الآن ويقال إن وضع الشيخ ليده على رأس الشاب بشبه ضربة خفيفة استحسانا لقبوله لتلك الشروط ترتب عليه أن ما يعرف اصطلاحا بالشبكة وهي الفتحة التي تولد في مقدم جمجمة الطفل، لا تولد في أبنائهم حتى الآن.

فتم الاتفاق بينهم وبينه وكتبوا وثيقة تنص على تلك الشروط وفي آخرها عبارة ستكون أنت وأبناؤك في القبيلة كالملح في الطعام ما لم يزدروا بأبنائي. (انتهى الاستشهاد)

فغرز لهم الوتد المشهور في أضاة بن الطالب عبد الله قرب احنيكات بغداده وقال له لن يغور ماؤها حتى ينتهي الحصار، وكان ذلك سببا في هزيمة المغافرة وتفرقهم وقيام إمارة إدوعيش.

هذه الحادثة جاءت نتيجة لتلك المعاهدة التي أبرمها سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم وامحمد شين وابنه محمد والتي ينص أهم بنودها على أن يعمل الأمير بالشريعة الإسلامية في حكمه، وأن لا يظلم، ولا يقبل الظلم لأحد وبعد أن تولى محمد بن امحمد شين الإمارة وصار تلميذا مخلصا لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم استمر في العمل بمقتضى تلك الوثيقة ابتداء من سنة 1201 تاريخ أخذ محمد للإمارة بعد والده محمد شين المتوفى سنة 1201 فكانت مدة إمارته تسع عشرة سنة كلها رخاء وازدهار، وتوسع امتد غربا وجنوبا وشمالا، ولم يطمع فيها طامع، فكان ذلك عهدها الذهبي وبعد موته مباشرة دب الخلاف بين ابنه اسويد احمد وأعمامه إخوة أبيه حتى صار هذا الخلاف يضرب به المثل الشعبي الذي يقول (بينهم ال بين اسويد احمد واعمام) وكان على رأس الأعمام المختار، واعل ابني امحمد شين فكان اعل حريصا على قتل ابن أخيه، وكان المختار على عكسه، ولكن اسويد احمد انتصر عليهم، وأخرجهم من تكانت لكنهم في الأخير دبروا له قتلا غادرا إلا أن إمارة تكانت بقيت لأبنائه حتى الآن. كل ذلك بفضل الله وبفضل علاقة الأمير محمد بن امحمد شين وشيخه سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم.

تاريخ ميلاده ونشأته

ولد سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم سنة ألف ومائة واثنين وخمسين 1152 على ما ذكره أحمد بن ألمين[1] وغيره فهذا سيدي محمد بن سيد عبد الله نفسه يقول :

قضى أبي السيد عبـــد الله في سنة البشر على انتبـاه
ليل حيى من ربيع الثانـــي بعد غروب الشمس والأذان
وليلة الوفاة تدعى الجمعــه جمعنا الله في جنة معــه
ولاح في الثاني بعــد الخمسين ضوء جبينه إلى الثمانيــن

وعلى ذكر هذا يكون ميلاده سنة 1152هـ موافق 1740م وعمره 80 ثمانين سنة، وفي غمرة هذه الأحداث المتلاحقة، وهذه الإمارات المختلفة، وهذه الصراعات المحتدمة ولد هذا الطفل الذي عاجله اليتم بموت أبيه كما قلت ولما يبلغ سن الفطام، وسنتعرض لوالده في محله إن شاء الله تعالى.

وبعد موت والده كفلته أمه السيدة مريم غل بنت عبد الله ابن أحمد القلاوية الأحمدية، فكانت أما من الشهامة وبعد النظر بمكانة تبلغ حد الكمال، ولا غرو، فهي قلاوية بكرية عريقة من قبيلة معروفة في هذا القطر بالشهامة، والكرم وإباء الضيم، تنتمي إلى أبي بكر الصديق[2] رضي الله تعالى عنه أفضل خلق الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء والمرسلين، انعقدت على تقديمه وتفضيله عقائد أهل الصدق والتحقيق[3] فلم تبرح به أهله وعشيرته ومسقط رأسه، بل أرسلت إلى أخيها الفقيه الحافظ لكتاب الله الشيخ أحمد بن عبد الله تخبره بموت زوجها، وبأنها قررت البقاء مع أبنائها في بلدهم، ر هلهم، فما كان منه إلا أن رحل إليها بما عنده من الماشية والموالي، إبلا، وبقرا، وغنما، وعبيدا ونزل بجوارها، وظلت هي وأخوها يوفران للطفل، وإخوته وسائل الراحة والعيش الرغيد حتى بلغ الطفل سن

---

1. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.
2. صحيح النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد غل.
3. خطب الجمعة لسيدي عبد الله نفسه.

الدراسة، فأرسلته إلى المدرسة (المحظرة) عند أخيها فأظهر نبوغا نادرا بحيث يحفظ ما في لوحه، بسرعة خارقة ويأخذ ألواح التلاميذ زملائه، ويحفظ ما فيها بسرعة[1] عجيبة تفوق العادة.

حفظ الطفل القرآن مبكرا، وأتقنه وجوده وهو صغير لم يبلغ الحلم ظهرت عبقريته مبكرة.

---

[1]. الدر الخالد في مناقب الوالد.

أشياخه في الوطن

إلى جانب خاله السيد / أحمد بن عبد الله الذي قرأ عليه القرآن حفظا وتجويدا كما سبقت الإشارة إليه، فقد قرأ صغار الكتب في الفقه والنحو على كل من عمار بن الحاج محمد، والطالب عبد الرحمن امباب بن بوكس[1] كما تشير إليه بعض المصادر، وإن كانت لم تصرح به، وهنا نريد أن نصحح غلطا، ورد أكثر من مرة في بعض الأطروحات التي تحدثت عنه، وهو قول بعضهم إنه تعلم على والده، والحقيقة أن والده رحل إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج والطفل في السنة الثانية من عمره ولما يبلغ سن الفطام، ولم يرجع والده من تلك الرحلة فقد توفي في رحلة العودة في قرية من قرى مصر يقال لها جده، وقد بنوا عليه قبة لما رأوا من صلاحه وفضله، ولا يزال قبره مزارا هنالك.

كان لتلاحق الأحداث، والصراعات، وقيام الإمارات وانعكاسات ذلك كله تأثيره في توجيه الطفل الوجهة التي اتجه إليها، فيما بعد.

فهزيمة الزوايا في حرب شربب في القبلة وتحكم بني حسان واستبدادهم بالأمور تولد عنه الكثير والكثير جدا من البغي والظلم والعسف كان العلماء يقاومونه بتحكيم الشريعة الإسلامية في مجتمع مسلم 100% و في ذلك قلت في قصيدة كتبتها بعنوان صرخة بالليل قلت فيها :

ألسنا حماة الناس من كل ظالـــم   إذا اشتد بين الناس عسف المغافر

نقارع حد السيف بالنص دونهم   ونقصي عن البيضا طغاة الجبابر

ونطوي خماصا جائعات بطوننا   ونروي رؤوسا من لعاب المحابر

ونعتقد أن الأمراء أنفسهم كانوا لا يقرون الظلم ولا البغي ولكن الكثيرين من اعوانهم حملة السلاح لا يقيمون وزنا للشريعة فكلما خلا أحد منهم بمن هو أعزل سلبه ما يملك من مال أو عرض، وربما إذا دافعه عن ماله أو عرضه (زوجه مثلا)

---

[1] الدر الخالد في مناقب الوالد.

سلبه حياته، وهذا ما جعل "الشيخ محمد محمود بن سيدي عبد الله يكفرهم في نظمه مكفر بني حسان فيقول :

لو أيقنوا الحساب والعقابا   يوم الجزا ما ظلموا ذبابا[1]

كانت مشاهدات الطفل لهذه المظاهر في منطقة تكانت تجعله ينشأ ناقما على الأوضاع القائمة حتى إذا ما قارب سن البلوغ ورحل إلى أرض الكبلة لطلب العلم، ومكث في مدرسة المختار بن بون الجكني جاءت مشاهداته هنا تفوق مشاهداته في تكانت أشد فظاعة. فطوال تلك المدة التي أمضاها في القبلة ازداد استياؤه وتمرده على ممارسات بني حسان فاشتد حنقه، ومقته للظلم، والبغي والاضطهاد فقد مكث في أرض الكبلة سبع سنوات ما بين مدرسة المختار بن بون، ومدرسة سيدي عبدالله بن الفاظل.

وصل الطفل إلى القبلة ولما يبلغ سن السابعة عشر. وهنا ألفت الانتباه إلى مفارقة ما بين ما يقوله – بل وأحيانا يكتبه – بعض من يقولون إن سيد عبد الله انتقل إلى أرض القبلة طالب علم بعد أن بلغ أو تجاوز العشرين من عمره وتزوج ورزق بابنه الأكبر محمد من زوجه الأولى فاطمة بنت آب بليل العلوية ومع احترامي لمقولتهم هذه التي لا أستبعدها بالمرة فإني ألفت الانتباه إلى أدلة تدل على أن الرجل انتقل إلى أرض القبلة ولم يصل بعد إلى سن الرجولة وتدل أيضا على أنه لم يرزق بابنه المذكور إلا بعد عودته من رحلته الطويلة وقد تشفع لي في تصوري هذا الأدلة التالية :

<u>الدليل الأول</u> (1) : أن أبناء محمد وأبناء أخويه محمد محمود وسيدي محمد متساوون في درجة الأقعدية من جدهم محل البحث والكل متفقون على أن الاثنين لم يولدا إلا بعد عودته.

<u>الدليل الثاني</u> (2) : أن محمد محمود ولد سيدي عبد الله في كتابه الدر الخالد لم يشر إلى هذه المقولة بشيء وحتى عندما تكلم عن تلامذة والده لم يذكر اسم أخيه من بينهم مع علمنا بان أخاه كان من افقه أهل زمانه ومع علمنا أيضا أنه تفقه في

---

[1]. مكفر بني حسان لمحمد محمود بن سيدي عبد الله.

مدرسة والده ولا يتأتى تجاهله لهذه النقطة عندما تطرق إلى انتقال والده في طلب العلم فلو كان إذ ذاك متزوجا وله ولد لذكر هذا في كتابه لما يترتب عليه من إظهار تصميم الرجل على طلب العلم إذ ترك زوجه وولده في وقت هما أحوج ما يكونان إليه.

الدليل الثالث (3) : أنه بعد خروجه من تجكجة حط رحله لأول مرة في مدرسة المختار ولد بونه في أرض القبلة وهو لا يزال صغيرا حيث أصبح المختار يلقبه (اتليميدي البيان بالتصغير) وهذا التصغير بحد ذاته يكفي دليلا على أنه لم يكن رجلا ابن أكثر من عشرين سنة.

الدليل الرابع (4) : ونكتبه بلغة الأرقام فكلنا متفقون على انه مولود سنة 1153 وكلنا متفقون على أنه عاد من رحلته الطويلة التي أمضى فيها عشرين عاما وعاد منها سنة 1190 ومعناه أنه وصل إلى شنقيط عائدا من هذه الرحلة وهو ابن 37 عاما أمضى منها 20 سنة في رحلته تلك التي تتفق جميع المراجع على أنها كانت كما يلي :

- 7 سنوات في أرض القبلة ما بين مدرسة ولد بونه ومدرسة سيدي عبد الله ولد الفاظل
- 7 سنوات منها على الأقل في المغرب وإن كان البعض يقول إنها 10 سنوات[1]
- 6 سنوات منها في المشرق ما بين البلاد المقدسة والجامع الأزهر في مصر فلم يبق إلا 17 سنة في مسقط رأسه قبل الرحلة وابن سبعة سنة لا يمكن أن يتزوج ويخلف خاصة في تلك الفترة الزمنية المعروفة بشظف العيش وخاصة على اليتيم.

الدليل الخامس (5) :

وهو أظهر الأدلة هو أنه بعد رجوعه إلى وطنه وبعد أن صار إماما لمسجد تجكجة العتيق وشيخا لمدرستها وتملك النخيل والدار وقعت حادثة معروفة تشهد عليها العقود هي أنه كان ذات ليلة عائدا من صلاة العشاء فوجد السيدة ربة البيت التي لم

[1]. ياب ولد محماد السملالي وسيد عبدال ولد محمد مومل.

تمكث معه كثيرا ولم ترزق منه بولد قد قدمت لابنه محمد عشاءه وهو طفل صغير فلم يرض الطفل عن نوع العشاء المقدم له فأخذ يصب فيه التراب حتى خرجت من الطعام فقال له انظر ماذا فعل طفلك هذا المدلل بالطعام فما كان منه -تغييرا لمنكر تمزيق الطعام بصب التراب فيه- إلا أن صفع الطفل بيده فهرع الطفل صارخا يبكي إلى جده لأمه الشيخ آب بليل ولد كباد فقام الشيخ مهرولا إلى داره هو وطرق الباب فعرفه واختفى عنه في بيت الكتب حياء منه فدخل هذا على السيدة وقال لها انت التي أغرينه حتى صفع الطفل وتا الله لن تلدي منه وعاد أدراجه فخرج هو من مخبئه وقال لها الحقي بأهلك فهذا الشيخ في فمه مفاتيح الكون.

وفي الصباح الباكر كتب وثيقة بتمليك بستانه المقابل لباب داره للطفل وأرسل وثيقة التمليك لجده ذلك ترضية له وللطفل عن تلك الصفعة، وهو بستان ثمين لا يزال بأيدي أبنائه حتى الآن ووثيقة التمليك بأيديهم وهي مؤرخة بتاريخ 1198/2/12 وليس من المعقول أن يكون ابن أكثر من عشرين سنة يصب التراب في الطعام، ولا أن يكون ابن أكثر من عشرين سنة يصفع على الوجه، و لا أن يكون ابن أكثر من عشرين سنة يصرخ باكيا لاجئا إلى الاعتصام بجده البالغ من العمر سبعين سنة، كل هذه أدلة قاطعة تدل على أن تلك المقولة -رغم إشاعتها- لا تتمتع بما فيه الكفاية من الأدلة على صحتها والأدلة المذكورة كافية لتفنيدها والله تعالى أعلم.

ثم انتقل من مدرسة المختار بن بونه إلى مدرسة سيد عبد الله بن الفاظل. والمعروف أن المختار بن بونه يعتز بعلمه، وبمعرفته ولم يقبل لأحد الفضل عليه في العلم وله في ذلك مساجلات ومشاجرات مع علماء عصره، لكنه لما سمع بعودة سيدي عبد الله من المشرق وكان تلميذا له قدم عليه في تجكجة و صار يقول لا تمكن مخالفة بن الحاج ابراهيم مادمنا في تكانت، ولما أرسل معه تلامذة له يوصلونه إلى أهله قال لرئيسهم عندما تنتهي مهمتكم، ويودعكم الشيخ أمسك بيده وأسأله هل أعمال الإنسان في الدنيا منها ما لا يمر على الميزان ففعل التلميذ فقال له الشيخ المختار هذا السؤال ليس لك و صديقتي (الدخان والشم) لن تكون في كفة الخير، وأبطل استعمالها منذ ذلك الوقت وقال ربما يتعلم الرجل على آخر ثم يفوقه في العلم.

انتقل من مدرسة المختار بن بونه صحبة ابن عمه حرمه بن عبد الجليل إلى مدرسة سيد عبد الله بن الفاظل في منطقة إينشيري وأمضى في الأولى ثلاث سنوات، وفي الثانية أربع سنوات فكانت المدة التي أمضاها بين المدرستين سبع سنوات، درس في الأولى محظرة المختار بن بونه الكافية لابن مالك في النحو وتسهيله وشروحه الدماميني والمساعد، ومطولات الفن وألفية السيوطي في البيان وشرحها عقود الجمان والتلخيص في البيان وشرحه للتفتزاني، وكبرى السنوسي في التوحيد ووسطاه وصغراه إلى آخر ما درس فيها مما الله أعلم به.

وفي الثانية محظرة سيدي عبد الله بن الفاظل درس علوم العربية من تصريف وبلاغه ودواوين الستي، وغيلان والنابغة وغيرهم، ولامية الأفعال...الخ. وفي تلك الفترة التي لا تقل عن سبع سنوات طوحت به همته إلى الانتقال لطلب العلم خارج القطر الشنقيطي بعد أن استكمل ما فيه من العلوم. في هذه الفترة، وبالذات في مدرسة ابن الفاظل حدثت.

حكاية : يحكى[1] أنه هو وابن عمه حرمه بن عبد الجليل كانا يكثران الجلوس في خيمة صناع لمراجعة الدروس، وكانت الآنسة فاطمة بنت سيدي عبد الله شيخهما من النجيبات وكانت كثيرا ما تتطفل على مذاكراتهما وذات مرة قال لها أخوها أحمد: لا تجلسي – بعد الآن– عند خيمة الصناع التي يجلس عندها العلويان، وبعد مدة من الزمن انتقل فيها الاثنان عن المدرسة وانتقل شيخهما إلى جوار ربه، وصار أخوها أحمد شيخا للمدرسة وكانت هي نفساء في خيمتهم على عادة أهل البلد إذ جاءه سؤال عن فقهية استعصى فهمها على علماء القبلة، والسؤال يقول : لماذا إذا شك المصلي في صلاته لا تبطل، وإذا شك المتوضئ في وضوئه يبطل كما هو مقرر في كتب الفقه، أمضى أحمد أياما يبحث في أمهات الكتب فرأته أخته، فسألته قائلة : أخي أحمد ما الذي تبحث عنه؟ فرد عليها ردا جاقا قائلا : هذا ليس من شأن السناء وأنت لا يعنيك فقالت له : أحب فقط أن أعرف هذا الذي أتعبك فقال لها جاءني سؤال عن مسألة كذا، فقالت له : أنت تعلم أن الشرع يولي للشرط من

النساء

---

[1]. ياب ولد محماد السملالي وسيد عبتلل ولد محمد مومل.

العناية ما لا يولي للمقصد كما هو مقرر عند الأصوليين، فرد عليها مستنكرا من أين لك هذا فقالت :

كان مضلي من هديت برشده فلله مغوجاء بالرشد آمرا

وهذا البيت من أبيات لخنافر بن عمرو الذي كان صعلوكا من صعاليك العرب، وكان له راب من الجن يقال له شصار أو شاصر، وكان من معشر الجن السبعة الذين كانوا يسترقون السمع من خير السماء، وكان يأتي به لخنافر، ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم اختفى عنه صاحبه الجني هذا لأنه هو وقومه أسلموا، يقول البعض مستعيدا بالله عن الجان، ومتوسلا بهؤلاء النفر :

من معشر الجن اتخذتم نفـــرا أصحاب خير الخلق منهم خفرا
منش وناش شرف وشاصـــر وجابر بن عامر و ماصــــــر
سابعهم في العد وهو الأحقب فهؤلا حافظهم لا يقـــــــرب

ف (شاصر) هذا هو شصار، ولما لقيه خنافر بعد الغيبة الطويلة عنه قال له لقد افتقدتك منذ زمن فأين كنت ؟ فقال له : لقد ظهر نبي الساعة في مكة، فاذهب إليه وكن من اوائل الناس التي تدخل في دين الله أفواجا، فأنا وقومي أسلمنا وآمنا بالله ربا واحدا لا شريك له، وبمحمد نبيا ورسولا ففعل خنافر وقال :

ألم تر أن الله عاد بفضله فانقذ من لفح الزخيخ خنافـــــرا
وكشف لي عن جحمتي عماها و أوضح لي نهجي وقد كان داثـــــرا
دعاني شصار للتي لو رفضتها لأصليت جمرا من لظي الهوب واهرا
فكان مضلي من هديت برشده فلله مغو جاء بالرشد آمـــــــرا

وهي بهذا تشير إلى أن من كان يخاف عليها منهما هما اللذان تعلمت منهما هذا وغيره من المعارف النافعة وإن ما كان يخاف عليها منه هي وهما أبعد ما يكونون عنه، بل إن همهم كان اكتساب العلم فقط، وأن لسان حالهم كان ينشدهم :

همنا العلم لا مراض الجفون لا تظنوا مرجمات الظنـــــــون

إن هزلا نخوضه في المجون   لمعين على صعاب الفنـــــــــــون

وبعد مدة إقامة صاحبنا في هذه المدرسة، وبعد أن حوى ما هو متناول بالدراسة فيها وفي سابقاتها من مدارس الوطن قال بلسان حاله ما سيقوله بلسان مقاله بعد عودته في كتابه طلعة الأنوار :

وارحل إذا حصلت علم البلـــــــد   والمصر لازم متقنيه تسعد

فشمر عن ساق الجد، وقرر الرحيل إلى الخارج بحثا عن مراكز العلم في كل من المغرب الأقصى والأوسط والشرق الأدنى والأوسط، والأقصى. فقرر الرحلة.

المرحلة الثانية من حياته

رحلته إلى المغرب

فتأسى بقوله تعالى (فولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) صدق الله العظيم بمقتضى هذه الآية الكريمة، وبدافع من الرغبة في النهل من ينابيع العلم أينما وجدت وحيثما كانت، شد صاحبنا راحلته، وهجر قيلولته وقائلته، وتحدى حر الصحراء وقرها وأعمل مطاياه يجوب تلك الفيافي يرفعه السراب ويخفضه أياما وليالي، سلاحه الصبر والعزيمة، وزاده التوكل على الله وكفى بالله وكيلا، ومركبه الهمة العالية والشكيمة القوية قائلا ما قاله الطغرائي في لامية العجم:

فيما الإقامة بالزوراء لا سكـــــني فيها ولا ناقتي فيها ولا جملـــــي

حب السلامة يثني هم صاحبـــــه عن المعالي ويغري المرء بالكسل

رضي الذليل بخفض العيش مسكنة والعز تحت رسيم الأينق الــــذلل

تابع صاحبنا سيره قاصد المملكة المغربية في عز أيامها وفي أوج نهضة العلم فيها في أيام السلطان سيد محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل، وكان هذا من أكابر علمائها مع أنه سلطانها العالم العادل المجاهد، ومن علمائها الشيخ البناني محشي الزرقاني على حاشية خليل واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن الحسن بن مسعود البناني المتوفى بفاس أواخر ربيع الثاني عام 1224هـ، ومنهم التاودي بن سوده، واسمه الصحيح محمد بن الطالب بن سودة الفاسي التاودي.

شق هذا الشاب المشغوف بطلب العلم طريقه إلى المغرب حتى وصل إليه، وبمجرد وصوله إليه أرسل رسالته التاريخية إلى أهله في مسقط رأسه تجكجة حرسها الله كما يقول هو كلما ذكرها يخبرهم بوصوله إلى المملكة المغربية سالما.

ولبعد المسافة، ووحشة الطريق، وكثرة قطاع الطرق وقلة منابع المياه بين القطر الشنقيطي والمملكة المغربية، كان السفر على ظهور الجمال غاية في الصعوبة

وغاية في ركوب هول المخاطر.

وإن دلت هذه الرسالة على شيء فإنما تدل على تعلق الرجل بوطنه، وبأهله، لكن همته العالية تتوق به إلى معالي الأمور، ولسان حاله ينشده :

ترى قاصر الهمات يشتاق أهله　　وذو الهمم العليا إذ يناله الصبر

وهـذه صـورة مـن الرسالة بخط يده هو. وقد نقلتها بلفظها إلى جانب صورتها استكمالا للفائدة، عسى أن يتمكن من قراءتها من لم يستطع قراءتها في الصورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصـلى الله على نبيه الكريم، من عبد الله بن ابراهيم بن الإمام، ابرك تحية وأسنى سـلام، إلى جميع القاطنين في تجكجة المحروسة بعناية المهيمن السلام فإن تسألوا عنا فعلى خير وعافية وفي خصب وعيشة راضية بمراكش متهيئا للقدوم إلى فاس إن شـاء الله أتـبرك منها. إن قضى الله حجنا واعتمرنا فليس في الوصل بيننا من خلاف. ركبنا ماركبنا من الثنيات والعقبات والأوحال ما لا يقتضيه من جنسنا مقام ولا حال بل صار عند كل جنس ونوع مخال رجاء إن ذلك يعقبه الزلال قال :

لو هان كسب المعالي لم تجد أحـدا　　إلا حريصا على العالي من الرتب

لكن رأي الناس في نيل العلا نصبا　　فسلموها لأهل الصبر والنصـب

ذريني انال ما ينال من العـلا　　فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

تريدين إدراك المعالي رخيصـة　　ولابد دون الشهد من إبر النحـل

فكـان الإمام المهدي يقول لأصحابه في جوفه مع علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني : إن هذا الأمر مثل الصبح يتقدمه الفجر الكاذب وبعده ينبلج الصباح ويعلو الضوء قال :

تجلد واصطبر إن نال أمـر　　بمكروه تضيق له الصـدور

فإن الدهر عسر ويسـر　　ومن بعد الدجى صبح ونـور

ولولا الداء لم يحمد شفـاء　　ولولا الحزن لم يحمد سـرور

إذا كانت النفـوس كبـــــارا تعبت في مرادها الأجســـــام
مرارة الهجر تحـــلـــو إن أعقب الهجر وصـــــــل
وكل صعـــب يرجـــى ثوابـــه فهـو ســـــــهل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما داره الحمـــل

وكـــأني بكم تقولون فعل كيت وكيت وذيت وذيت كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق :

يوما بحروا ويوما بالعقي ق وبالعذيب يوما ويوما بالخليصاء

ولم تنظروا إلى قول خليلكم، وكلام لإصلاحها، وإلى الحديث؛ ما أدركتم فأتموا وما فـــاتكم فاقضـــوا مع إنا معشر البيانيين الالتفات عندنا من أجمل المحسنات واقرأوا الفاتحـــة، ومن قواعد الأصول درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وأي مفسدة مـــثل الجهـــل؟ فها نحن في هذه البلاد أنشد لسان حالنا بيت سيدي محمد الحاج في تلمسان :

إن الغريب له حق بغربته على المقيمين في الأوطان والسكن

فأنشدونا :

إن تستغيثوا بنا إن تذعروا تجدوا منا معاقل عز زانها كـــرم

وأنا إلى الآن لم ألتق مع السلطان لأني وجدته نحو الغرب متحركا يريد سبتة هدمها الله بأيدينا(1) وأما السيد محمود(2) فهو في السجن مجعولة سلسلة لا يستطيع الجمل حمـــلها في عنقه ومجعولا هو مع ذلك في مطمورة من خفضه سوء أدبه لم يرفعه حسن حسبه. قال :

فلا تتكل إلا على ما فعلته ولا تحسبن المجد يورث بالنسب

وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

لسنا وإن أحسابنا كرمـــت يوما على الأحساب نتكـــــل
نبني كما كانت أوائلنـــــا تبني و نفــــعل فوق ما فعـــلوا

---

1. جاهد معه في هذه الحرب.
2. يبدو أنه رجل شنقيطي استوجب الحبس.

مـن أكـرم الناس أكرموه، ومن ذمهم بما يعلم ذموه بما يعلمون، وبما لا يعلمون. صـمت يكسـوك الوقـار خير من كلام يلبسك العار، الصبر في البداية ظفر في النهاية. قال :

وقل من جد في أمر يطالبه فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وإن تسـألوا عمـا فـي مراكش من علوم فيقرأ فيها السبع، وفي الكلام الصغرى والكـبرى، وفي الفقه خليل والعاصمة ونحوهما وفي النحو الخلاصة، وفي الرسم الخرازي، وفي الأصول العامة جمع الجوامع، وفي الخلاصة المنهاج والتكميل وفي البيان التلخيص، وفي العروض الخزرجية والشاويه وفي الحساب المنية لابن غازي وتـلخيص ابـن بـناء، وفي الحديث ألفية العراقي وأما فاس فقصرت مصر عن طرابلس، يتعاطون التسهيل وغيره من كل كبير في فنه بالشرح والتدريس إلا علم الهندسة لم يذكره عنهم ذاكر انتهى.

خفيف :

رب جيل حسن الملابس من رهـ ط على سلبنني بعد جيـــل

طالما حلت بالخريف جـــمالا عن لين الوادي وفرع العجـــول

وتلاعا من ريق القطر تزهـــو وشباب الزمان ملقى السيـــول

صرعنني بين الرياض وبـــي ن ابن عريف حذاء سوق البقـول

لا تلوموا من فارق الحب طـــو عا واختيارا أهل النهى و العقـول

ذهبت بي الفتيان إذ تعاطـــى كل حلو من منطق و أصــــول

أبجد، هوز، حطي، كلمن، صعفض، قرست، ثخذ، ظغش

أيقش، بكر، جلس، دمت، هنث، وصخ، زعذ، حفظ، طضغ.

الـلهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره، ومقداره العظيم.

الـلهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق،

والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره، ومقداره العظيم.

هـ انظر صورة الرسالة بخطه.

وبعد هذا وذاك، وبعد أن حظي بلقاء السلطان سيدي محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل، وتوطدت الصلة بينهما (صلة العالم بالعالم) أحله السلطان منه محل القرب وصار لا يصبر عن مذاكرته، لكن صاحبنا مولع بحج بيت الله الحرام، وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام.

فما كان من السلطان إلا أن جهز له باخرة تحمله وأرسل معه ابنه اليزيد ليطمئن على صحة حجته لأنه أرسله مع عالم جليل، فأتم حجه وزيارته، والتقى كبار العلماء في الحجاز وفي الديار المقدسة، فأفادهم واستفاد منهم، وقد ذكر من بينهم سيدي أحمد لحبيب[1] الذي قال عنه إنه ينسب للقطبانية وفي طريق العودة مر بمصر فاتصل بالجامع الأزهر، ولقي علماءه وتوطدت صلته بأميرها محمد علي باشا الذي أتحفه بنجيبة من عتاق الخيل المعروفات باكحيلات مصر، وكان هذا النوع من جياد الخيل النوادر الذي لا يملكه إلا الملوك والسلاطين وقد سمعت من المصريين أنفسهم أيام كنت طالبا فيها من يقارن هذا النوع من الخيل بغيره منها مقارنة الطائرة اليوم بالسيارة العادية، وكان الأمير أهداه هذه النجيبة لتوصله إلى بلده بالراحة والسرعة المناسبتين لمثله، لكن عزوفه عن ملذات الدنيا ومظاهرها، وحبه للعلم، وزهده فيما سواه حمله على أن جعلها حطابا كما قال هو لما سأله أمير المغرب بعد وصوله إليه قائلا أين جوادك يا شيخ ؟ قال : (جعلتها حطابا) فصارت تلك العبارة مثلا شعبيا يضربونه لمن أبدل شيئا غاليا بشيء لا يساويه في نظرهم حيث أن هذه النجيبة لا يقدر ثمنها عند من يملكها، لكنه هو يتضاءل عنده كل شيء إلى جانب العلم، ولا أدري ما إذا كان أبدلها بالكتاب أو باعها واشتراه بثمنها، والأخير أولى عندي لأني اطلعت على كلمات مكتوبة على هامش الكتاب يفهم منها أنه اشتراه بمبلغ من الفضة، مما يجعلني أميل إلى التوفيق بين الوجهين بأنه اشتراه بثمنها، وأنه لم يبعها إلا ليشتري الكتاب بثمنها، ولذلك قال : جعلتها حطابا، والله تعالى أعلم أنه في الحقيقة تحفة نادرة لا يوجد له مثيل في هذا القطر ولم أر له

---

[1] الدر الخالد في مناقب الوالد.

مثيلا في الأقطار العربية التي زرتها، ورغم ما لقيه في كل من الحرمين الشريفين، وفـــي مصر، وفي المغرب من الحفاوة وعلو المكانة، فإن ولعه بالعودة إلى وطنه ظـل هاجسـا راسـخا في نفسه. وحسب الرواية المتداولة من الأجداد والآباء إلى أبنائهم، ومن هؤلاء إلى أبنائهم وهلم جرا ممن أدركناهم من أبناء أبنائه وحفدته[1] يقولون إنه في المدينة المنورة سمع منشدا ينشد :

إن امرأ أفنى الشباب مجاورا   سوى حيه إلا كآخر هالـــــــك

ألا رب يوم سقمت لعادتـــي   نساء كرام من حيي و مالـــــك

فأصـبح مـع بزوغ فجر اليوم الموالي يحزم حقائبه ويشد رحاله عائدا إلى وطنه، وكـتب بخـط يـده : الحمد لله لما ارتحلنا من المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام وذلك وسط المحرم عام 1188هـ موافقا 1774 أنشد كاتب الحروف عبد الله بن ابراهيم بن الإمام العلوي أعلاه الله في الدارين آمين.

يا مودع القلب عند المصطفى الهادى   ودع مقطع أحشاء وأكبـــاد

ودع نبي الهدى وابك البقيع دمـــا   ودعه توديع أرواح لأجســـاد

ودع رفيقيه ثم الليث في أحـــــد   ليث الإله ومن بلأشرف النادى

ودع بنيه وعباسا فقـــد رحلـــت   عنك الركاب بلى وغرد الحادي

ودع مساقط وحـــي كان يعهدهـــا   جبريل إما بوعد أو إيعـــاد

1. وتــدل هـذه الحادثة على أكثر من دلالة لما تحمله من رموز لها مالها من الأهمية في سبر أغوار مشاعر الرجل ولو أعجبه :

أولا : شـدة محبـته لرسـول الله صـلى الله عليه وسلم ومدينته المنورة، ولآله وأصحابه، وحزنه على الرحيل عن ذلك كله.

ثانيـــا : قوة شاعريته، وحسن أسلوبه وسبكه مع أنه لم يكن مشتهرا بالشعر، ولم يجعله صنعـــــة له حيث غطت شهرته العلمية والدينية على مواهبه الشعرية، وملكاته الأدبية.

ثالثا : حبه لوطنه وتعلقه به حيث لم تمنعه المغريات الكثيرة التي حظى بها أثناء

---

[1]. محمد الأمين بن محمد أحيد وأخته رقية بنت محمد أحيد.

مقامه في هذه البلاد سواء عند الملوك والسلاطين، أو عند العلماء والمثقفين الذين أعطـوه مـن الإجلال والتقدير والاعتراف به ما يمكن أن يسليه عن وطنه كما حدث للكثيرين ممن استقروا في تلك البلاد وفي غيرها من بلاد العالم الإسلامي.

رابعا : قوة تصميمه حيث سل نفسه سل الشعرة من العجين من كل هذه المغريات وأصبح عابر سبيل يحث مطاياه في طريق العودة إلى وطنه لا يلوي على شيء فمـر بمصـر الـتي فـتحت له ذراعيها وتلقفته بالأحضان، وغمرته بالترحاب والإكرام كما سبقت الإشارة إليه، وأمضى فيها فترة يمكن تقديرها بأربع أو خمس سنوات، فقد قدر بعض الباحثين[1] مدة إقامته في المشرق بنحو (6) ست سنوات مـا بين الحجاز ومصر وفي المغرب بنحو (7) سبع سنوات وفي مدارس القبلة بنحو (7) سبع سنوات، وهو ما يساوي عشرين سنة التي هي مدة الرحلة بكاملها.

وبعـد وصـوله إلى المغرب عائدا من المشرق استقر ما بين الفاسيين[2] الجديد والـبالي ملازمـا للشيخين البناني والتاودي بن سودة، وسبق التعريف باسميهما، وبما جرى بينه وبينهما، وبعد وصوله إلى المغرب عائدا من المشرق وهي بداية النهاية لرحلته حيث حط رحاله في بلده الثاني المملكة المغربية وأمضى فيها فترة احتضـنه خلالها السلطان مولاي محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل، وجعله من أخص خواصه، ومن أقرب الناس إليه. يقول محمد محمود بن سيدي عـبد الله[3] بالحـرف الواحد كان رحمه الله رحل إلى المغرب، ومكث فيه سبع سـنين الغـالب عليه الفاسيان الجديد والبالي، ومراكش، وهي التي أخذ فيها عن البـناني، واشـتهر فـي المغرب غاية الاشتهار واعترف بفضله الفاجر والبار، وقدمته القرى والأمصار وصار أقرب خاصة سيدي محمد بن مولاي عبد الله بن مولاي اسماعيل السلطان، وأحسن عليه أحسن عليه الرحمن.

أمـا أحمد بن ألمين[4] فقد بدأ كلامه عنه بقوله : هو العلامة النحرير طار ذكره

---

1. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.
2. مركزي العلم في مناقب فاس الجديد والبالي.
3. الدر الخالد في مناقب الوالد.
4. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.

وانتشـــر واشتهر علمه في الآفاق وابذعر ما عاصره مثله، تلقى العلم عن البناني محشـــي الـــزرقاني وتلقاه البناني عنه أيضا فحج ولقي من يشار إليهم من علماء مصر وذاكرهم وأفادهم واستفاد منهم هذا ما نقلته ممن يوثق به من أبنائه وأحفاده ومن ساكنوهم وعاشروهم، إلى غير ذلك، وأسأل الله تعالى أن يعصمني من الزلل ويوفقني في القول والعمل والله تعالى أعلم.

وصوله إلى المغرب عائدا من الحج

وهذه المرحلة من أهم مراحل رحلته وعودته إذ فيها ألقى عصا التسيار ما بين الفاسيين ومراكش، يدور بين هذه المراكز العلمية كالنحلة يمتص رحيق العلم، ما بين البناني وسيد محمد الفاسي وابن سودة المشار إليهما سابقا في محل من هذه الدراسة، وكان لا يذكر واحد منهم إلا قال شيخنا.

ويتفق أو يكاد يتفق كل من صاحب الدر الخالد وخير الدين الزركلي، وفتح الشكور في علماء التكرور، وهدية الصمد في مناقب الجد، والوسيط في تراجم أدباء شنقيط وتقديم نشر البنود على مراقي السعود جميعهم على ما لقيه سيد عبد الله بن الحاج ابراهيم من إجلال وتكريم لدى سلطان المغرب محمد بن عبد الله بن مولاي اسماعيل بعد أن أرسل إليه يستقدمه فأبى أن يقدم عليه قائلا إن العلم يوتى ولا ياتي، فأمر جنوده أن يحملوه إليه على الهيئة التي يجدونه عليها، فوجوده على سرير يطالع كتابا فحملوه وأتوه به دون أن يغير شيئا من حالته التي وجدوه عليها فلما استنطقه وذاكره صار لا يصبر عن مذاكرته وجعله أقرب الناس إليه، لأن السلطان كان من علماء عصره فتوطدت العلاقة بينهما حتى أن صاحبنا حمل السلاح معه وجاهد معه النصارى، وأحب هو السلطان وأعجبه كثيرا ومما يدل على ذلك قصيدته التي مدحه بها ومنها البيتين التاليين :

وقد رضي المولى عليك محمـــدا إذامنه لما ارتضاه تقودهـــا

كما رضيت عنك السماحة و الندى والأمة طرا حرها وعبيدها

وقد اختلف صاحب الدر الخالد، وصاحب تقديم نشر البنود في المدة التي أمضاها في المغرب، فقد قال الأول إنها سبع سنوات، وقال الثاني إنها عشر سنوات، وسواء أكانت عشرا أو سبعا فإنها لم تنسه وطنه شنقيط وأهله في تجكجة، فقد ظل مصرا على العودة إليهما رغم امتناع السلطان من الإذن له فيها، ولكنه ظل يلح على السلطان حتى أذن له، وقال له اطلب كل حوائجك تقضى لكنه لم يطلب إلا الكتب فأوقر له منها ثلاثة جمال وعاد بها.

عودته إلى وطنه

بعد تلك الرحلة الطويلة والغربة الثقيلة التي أمضى فيها الرجل عشرين سنة تزيد قليلا أو تنقص قليلا. تتعاطاه الصحاري والمدن والأمصار وتتقاذفه البلدان والأقطار، وتحمله على متونها الصحاري والبحار، زاده الصبر الذي لا يلين ومركبه الهمة العالية وقوة اليقين، وسلاحه التوكل على الله القوي المعين، ومطلبه اكتساب العلم والدين وجلساؤه أينما حل العلماء والسلاطين، إذ القرين له تأثير مباشر على القرين.

وبعد أن حقق جميع أحلامه وقضى جميع أوطاره وغاياته، ولبى وحج واعتمر وطاف بالبيت العتيق وقبل الحجر، وزار قبر سيد البشر، وأمضى أياما وليالي يسامر الجوزاء، ويصاحب القمر، يطيل في التنقيب عن الغوامض السهاد والسهر، حتى قضى من ذلك كله ما كان له من وطره.

وجه وجهه شطر الوطن يدفعه الشوق والحنين إلى تلك الربوع والدمن حاملا موسوعته العلمية معارفا وكتبا نادرة، فلم يهتم طوال تلك الرحلة الطويلة والغربة الثقيلة بالدنيا الدينية، بل ظلت نفسه عن زخرفها وملذاتها أبيه، وكانت نفسه لضميره طيعة وفية.

جمع في ذاكرته علوم المغرب والمشرق، وجاهد في الله حق جهاده وحارب النفس والشيطان اشد الحرب، وقفل راجعا بزاد كبير من العلم والدين والأدب والأخلاق، فركب الصحراء بحرها وقرها في العودة كما فعل في الذهاب، يرفعه ويخفضه

السراب حتى وصل إلى شنقيط، وبمجرد وصوله إليها أرسل رسالته التاريخية إلى أهله في تجكجة يبشرهم بوصوله إلى شنقيط التي عانق فيها الإخوة والأحباب، وطاب له إليها الإياب.

كانت تلك الرسالة الموجهة إلى مسقط رأسه وساكنيه، غاية حبه وأنسه ومجمع أترابه من قومه وجنسه، وهذا نصها نسخته إتماما للفائدة لصعوبة قراءتها من الصورة المرفقة :

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما، إخواننا وأهلنا سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته من المسلم عليكم عبيد ربه سبحانه عبد الله بن ابراهيم بن الإمام العلوي، وبعد فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه وآله وصحبه وأسلم سلاما تاما دائما، وأنهي إلى علمكم أننا وصلنا مدينة شنقيط سالمين بحمد الله تعالى مستصحبين ثلاثة أحمال من الكتب، وذلك ليلة الجمعة في السادس عشر من جمادى الأخرى عام 1190 تلو اليوم الذي سافرت فيه رفقتكم، وقد وجهنا إليكم حامل الكتب السيد أحمد مسكه بن حبيب الله العلوي ليعلمكم والسلام عليكم وكتبه فقير مولاه في الثامن والعشرين من جمادى الأخرى عام 1190 عبيد ربه سبحانه عبد الله بن ابراهيم بن الإمام العلوي أعلاه الله آمين والسلام.

وقد حبس كتبا على مسجد شنقيط لا تزال به حتى الآن وتدل هذه الرسالة على أكثر من دلالة فهي تدل على :

أولا : أن صاحبنا قد ضاق ذرعا بما تحمله من لواعج الشوق والحنين إلى أهله ووطنه لأنه أرسلها في الأسبوع الموالي لوصوله إلى شنقيط إذ وصل إليها يوم 16، وأرسل رسالته يوم 28 من نفس الشهر.

ثانيا : أنه لا يزال عابر سبيل، فلم يأنس بوصوله إلى مدينة شنقيط أم الوطن موطن الآباء والأجداد، وأصالة الأبناء والأحفاد، فلم يلق بها عصا التسيار، رغم ما تحويه من الكنوز والآثار، وما يسكنها من الأعلام والأخيار.

ثالثا : أنه مغتبط بعودته إلى الوطن، ويريد أن يشرك معه الأهل والأخوة في تلك الغبطة فبشرهم بعودته من هذه الرحلة الطويلة التي أمضى فيها نحوا من عشرين

سنة طوحت به همته العليا إلى ارتكاب أهوالها وتجشم أخطارها وطول غربتها ولسان حاله ينشده.

عد السنين إذا هممت بحاجة ودع الشهور فإنهن قصار

فلم يبد شوقه وحبه لوطنه إلا بعد أن أنجز مهمته، وقضى حاجته، واستلذ عودته، وهذه لعمري تدل على كبر همته وقوة شخصيته، وصبره وجلده.

فها هو ذا يعود إلى وطنه رافعا رأسه، ناسيا أو متناسيا كلما لقيه في غربته من المشقة، والأهوال شاربا نخب نجاح مهماته، وقضاء حاجاته، وعودته إلى أهله و لداته بعد أن قضى وطره واستكمل غايته وأربه فصبر، وصبر ثم صبر (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور).

ترى قاصر الهمات يشتاق أهله وذو الهمم العليا إذ يناله الصبـــــر

يقولون من صبر وتأنى نال ما تمنى، فها هو ذا يعود ويعانق الأحبة، ويدخل مدينة شنقيط عائدا إلى أهله مستحليا ريق اللقاء بعد الفرقة، والجلاء.

في مدخل الحمراء كان لقاؤنا ما أطيب اللقيا بلا ميعـــــــــاد

ألقى الرجل عصا التسيار، وعاد إلى أحب البلاد إليه (تجكجة) حرسها الله كما يقول هو كلما ذكرها، وبها بدا المْرحلة الثالثة من عمره، وهي أهم مراحله حيث المرحلتان السابقتان كانتا مرحلتي تحصيل وإعداد لشخصيته وكسبا لمعارفه من أجل إعداده لهذه المرحلة، وتسليحه لخوض معركتها الحافلة بالأحداث والميراث والانجازات العظيمة.

المرحلة الثالثة من حياته

من 1190 هـ لغاية 1233

مدرسته العلمية ودورها التاريخي

افتتح الشيخ سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم مدرسته المشهورة التي صدر منها رعيل من العلماء مباشرة بعد عودته إلى تجكجة، فأمدت الوطن بعدد كبير من العلماء، والحفاظ والفقهاء، وإليها يرجع الفضل في نشر العلوم بأنواعها. وخاصة الأصول ومصطلح الحديث، والمنطق والبيان لأنها علوم كانت غير موجودة في القطر قبل هذه المدرسة فكان إمام مسجدها العتيق وشيخ مدرستها ومجلى حلبة علمائها، وقوادها.

فكانت المنطقة بكاملها في تلك الفترة ساخنة ومشحونة بالأحداث كما سبق أن فصلناه في المرحلة الأولى عند كلامنا على نشوء الإمارات والحروب التي تعج بها المنطقة، فجاء الرجل يحمل فكرة انتشال بلده، وأهله من بين أنياب الحروب والفتن والنزاعات التي تكون أحيانا بين إمارة وأخرى، وأحيانا بين بطون القبيلة نفسها وفي نظره أن تطبيق الشريعة الإسلامية، وتحكيم شرع الله هو وحده المنقذ من هذه الأزمات.

ونحن نعلم أن مثل تطبيق فكرة كهذه في مجتمع ابتعد عنها، وتحكمت فيه العادات، والامتيازات والاعتبارات الشخصية والطبقية، أمر من الصعوبة بمكان، وفي سبيل هذه النقطة تعرض الرجل للكثير، والكثير جدا من المؤامرات والمحاولات من طرف أصحاب الامتيازات والمصالح الذين يعتبرون مثل هذا العمل سيكون على حساب مصالحهم لكن قوة نفوذ الرجل على أصحاب السلطة في المنطقة ولا سيما على أمرائها، مكنه من تحقيق حقن الدماء وإطفاء نار الفتن التي كانت تستعر هنا وهناك، لصالح بلده وأهله، كما استطاع أن يستأصل شافه الفتن التي كانت تقع بين أفخاذ قبيلته حينا بعد حين فتم الاستقرار والألفة بينهم حتى الآن ويرجع بعض المراجع[1] أهم تلك الصعوبات التي تعرض لها إلى أسباب تغلب عليها الرواية

1. خير الدين الزركلي.

الشفهية التي لا تخلو من مزايدات في بعض الحقائق وعدم الدقة في بعضها، فالرجل أعجزه انتشال قومه من الفتن التي تجري بينهم بالطرق السلمية والإقناع فلجأ إلى تجريدهم من الأسلحة التي كادت أن تفنيهم عن آخرهم، فلقد جاؤوا من شنقيط فلول حرب مدمرة بينهم وبين إخوتهم أبناء عمهم، ولم يلبثوا أن أصبحوا يقتتلون فيما بينهم، واعتقد أن حادثة تجريدهم من السلاح وإن كانت لصالحهم هي واحدة من العوامل التي أدت إلى ظهور التناقض بينهم وبينه بالإضافة إلى منافسة الأعصار، ولا أريد أن أسميها (الحسد) كما سماها الكثيرون، ولكنها – وحتى ولو سلمنا بها – ظاهرة طبيعية فالرجل أعطاه الله ما يحسد عليه، خاصة وأن قبيلته معروفة بعزة النفوس والكبرياء، وقد لا ترضى بأن يعلوها أحد وحتى لو كان من أبنائها، خاصة أن أبرز مناصبيه العداء كانوا من أبناء عمه الأقربين، وأبناء أخواته البارزين، ذلك لأنهم يعتبرون قناعته بالمساواة بينهم وبين غيرهم من أبناء عمومتهم حيفا عليهم وظلما لهم لأنهم أئمة العشيرة وأهل الحل والعقد فيها في ذلك الوقت على الأقل. وأي تغيير لهذه الثوابت التي يعتبرونها حقا لهم دون غيرهم خطر عليهم، مما أدى بهم مرارا إلى محاولة تصفيته الجسدية، لكن الله سلم[1].

غير أن السبب الرئيسي الذي يبدو جليا ومعقولا هو أن الرجل جاء يحمل رسالة العلم، وأمضى ثمانية عشر عاما في مدينة تجكجة إماما لمسجدها وشيخا لمدرستها حتى أكمل عطاءه العلمي فيها وحتى ارتوى من معين علمه شبابها، وسنقدم كل واحد منهم باسمه وعينه عندما نتعرض لتلاميذه خريجي مدرسته.

عندها ظهر له أن ينتقل إلى مكان يبلغ فيه رسالته، وينشر فيه تعاليم الدين الإسلامي، وكان له ما أراد، فنزل في حي من تجكانت، وهي قبيلة معروفة بحبها للعلم وللعلماء ومعروفة بنبلها وكرمها وفضلها وعلو شأنها بين القبائل الموريتانية، فتوافد عليه شبابها وشباب القبائل في تلك المنطقة تجكانت، إدو الحاج، مسومه، أولاد الناصر، اسواكر، أولاد علوش، تاكاط، تركز، إديبسات، أولاد ديمان، أولاد أبيري وغيرهم، وغيرهم، فأخذوا منه بأوفر حظ من العلم وهذا ما سنتكلم عنه

---

[1]. بعد أن يئس الرجل من استجابة قومه لنداءاته المتكررة بأن يعودوا إلى كتاب الله فيما يشجر بينهم علم أنه لا مفر من أن يستمروا في الاقتتال لأبسط الأسباب، وإما أن يجردهم من أسلحة الموت التي يتوفر عليها كل فرد منهم لجأ إلى تجريدهم من الأسلحة.

عندما نتعرض لتلاميذه خريجي مدرسته. تلك المدرسة المجددة في مناهجها وفي موادها، وفي أسلوب تدريسها، في التقديم والعرض، في تناولها للكل والبعض.

لذلك اعتبروه مجدد عصره[1] في نهجه الذي انتهجه في كتاباته في اسلوبه، في طريقته في تعامله مع أحداث عصره.

نهج مدرسته العلمية ودورها التاريخي

تتركز المواد المدروسة في هذه المدرسة بالدرجة الأولى في القرآن العظيم، والحديث الشريف واللغة العربية والفقه والنحو فكان لا يبدأ فيها التلميذ بشيء قبل أن يتقن القرآن حفظا وتجويدا ثم صغار كتب النحو حتى يصلح لسانه، ثم صغار كتب الفقه ثم يعمد إلى قراءة مطولات هذه الفنون.

وبعد ذلك يبدأ قراءة علم الأصول الذي هو الباب الواسع للدخول إلى فهم هذه العلوم، مصطلح الحديث والمنطق والبيان والبلاغة والبديع وغير ذلك مما هو جديد على الساحة المحظرية في البلاد فقد كانت الدراسة في البلد تتركز في الفروع وما يتعلق بها : والنحو واللغة، وما يتعلق بذلك.

أما كتابته فإنك تراه يركز فيها على الإسناد والعزو والابتعاد عن الذاتية، وبأسلوب غير الأسلوب الذي كان مستعملا في العزو عندهم فكانوا يقولون أخبرنا فلان عن فلان، حدثنا فلان قال حدثني فلان، أنبأنا فلان، قال أنبأني فلان...الخ مما هو معروف وشائع في مؤلفاتهم.

وهذه ليست طريقته هو ولا أسلوبه في الإسناد والعزو كما هو واضح في مؤلفاته.

---

[1]. زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم.

مميزات مدرسته

لا يتكلف الباحث أي عناء في تمييز مدرسة سيد عبد الله عن غيرها من المدارس القائمة في القطر الشنقيطي في تلك الحقبة الزمنية التي ظهرت فيها مدرسته فهي :

أولا : مدرسة موسوعية تدرس فيها جميع المواد المتناولة بالدراسة في القطر في تلك القرون، فإلقاء نظرة ولو سريعة على ما كتبه من ترجموا له في كتبهم[1] يعطي صورة واضحة عن الفوارق بينها وبين غيرها من المدارس.

ثانيا : طرقها لأبواب مجالات لم تكن مألوفة. ولا هي مثار الاهتمامات لدى المدارس الأخرى، لأن هذه كانت تكتفي في أغلب أحوالها بالنصوص المتداولة في جميع الفنون. فلست ترى من بينها من تاتي إلى الساحة المدرسية بمدروسات جديدة كما قال الشاعر :

ما أرانا نقول من شعرنـــا   إلا معادا من قولنا مكرورا

وكما قال ابن الشيخ سيديا :

إني هممت بأن أقول قصيدة   بكرا فأعياني وجود المطلع

فكانوا يقولون ليس في الإمكان أبدع مما كان، ولا تكاد تجد مدرسة يدرس فيها غير ما يدرس في التي جئت منها : مختصر خليل في الفقه المالكي وشروحه، وابن عاشر، وشروحه، والعاصمية وشروحها. ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وشرحها...الخ في الفقه ثم متن الأجرومية، وملحة الأعراب، وألفية ابن مالك، ولامية الأفعال وما شاكل ذلك من كتب النحو، والصرف واللغة...الخ.

ثم نص القرآن الكريم، ورسم الطالب عبد الله، وابن برى والنجوم الطوالع مما يتعلق بالتجويد، والرسم القراني... الخ وغير، وغير.

وهكذا كانت المدارس في أغلبها.. لكن مدرسة سيدي عبد الله جاءت مجددة كما هو نفسه جاء مجددا فهو أول من درس، ومدرستة أولى مدرسة اهتم، واهتمت بتدريس أصول الفقه، للدخول إلى فهم القرآن من بابه الواسع واهتم، واهتمت مدرسته

---

1. انظر كتابه طرد الضوال والهمل ترى أن جدد حتى في أسلوب القصا وما يتعلق بالحكم.

بمصطلح الحديث لفهم السنة ومصطلحاتها...الخ وكذلك اهتم هو واهتمت مدرسته بعلم البلاغة. والبديع والبيان لفهم القرآن والحديث.

كان الرجل – فعلا – مجددا في أسلوبه حتى في الكتابة. فقلما نراه يكتب إلا عازيا لغيره، ومجددا مرجعيته في كلما يكتبه، وليس بالأسلوب المألوف لدى المؤلفين، أخبرنا، أنبأنا، حدثنا...الخ.

فقد جاء الرجل ثائرا على الكثير من الثوابت التي درج عليها الكثيرون من المدارس، ومن المؤلفين، وحتى من أشياخه، فهو مالكي المذهب ولكنه خالف الإمام مالكا في مسألة ماء الغدير الذي يختلط بأبوال وأرواث الماشية فقال ناظم نوازله :

إذا من المواشي في الغدير حـــل   بول و روث والتغير حصـــل

بعدم التطهير أفتى مالـــــك   بالماء لانفكاكه عن ذلـــــك

وعنه في مجموعة لا ينبـغـــي   به و لا أمنعه للمبتغـــــــي

الباجي أي لأنه مما غلـــب   لذاك قول مالك فيه اضطرب

قال إذا عسر حفظ الباديـــه   للماء حاله الوجوب باديـــه

وذو تطهر به تيممـــــا   من بعده للاحتياط يممـــا

وكتب في ذلك رسالة سماها مطالع التنوير في آفاق التطهير ثم أنه في مجال القضاء، والفتوى، وما إلى ذلك مما يتعلق بما يقع بين اثنين ألف كتابا سماه طرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض مسائل العمل، مظهرا فيه العلاقة بين علم الأصول وعلم الفروع، ومبينا أن من لم يعرف علم الأصول لا ينبغي أن يتصدر للقضاء، والفتوى اعتمادا على النصوص الفروعية الجامدة، بل لا بد للقاضي من الاستناد في أحكامه على مصطلحات الأصوليين ليتمكن من معرفة المقاصد الشرعية من خلال فهمه للقرآن والسنة.

فالرجل يشهد له كل أو جل العلماء( ) في هذه البلاد بالسبق في ميدان الأصول والبلاغة وعلوم اللغة، وبالبراعة في ميدان التأليف والغوص إلى أعماق المعاني واستنطاق معاجم اللغة ويكفيك أن ابنه سيدي محمد من تلاميذته خريجي مدرسته

---

[1]. اب بن اخطور، أحمد بن ألمين صاحب الوسيط، الشيخ محمد المامي الدلفينية.

فهو الفارس المجلى في حلبة اللغويين، فتأليفه[1] في النحو والصرف، والعروض هجنت تآليف من سبقوه إلى ذلك وحتى الذين جاءوا بعده وكتبوا عنه يتفقون على تنويع المعارف في مدرسته.

فاحمد بن ألمين[2] المتوفى 1915 يقول : أعطته العلوم أزمتها فصار من علماء أئمتها حاو جميع الفنون كثير الشروح والمتون إلى أن يقول لم يأت الزمان بمثله ولا جاء فيما مضى بشكله...الخ.

وبدي بن سيدين : في نزهة المستمع واللافظ يقول : ومن أشياخه خاتمة المجتهدين ذو المحاسن الأثيرة والمناقب الكثيرة من سار ذكره في الآفاق سير المثل، وزان علمه بزينة العمل، وعمت أنواره جميع الخليفة، وجمع بين الشريعة والحقيقة، وكان في العلم ذا منصب عظيم. كان رحمه الله من العلماء العاملين، ومن أولياء الله العارفين، كان في ظلمة الجهل سراجا منيرا وانتفع به الخلق انتفاعا كثيرا. قدمت في سفر لي على أهل بلدته فرايتهم على غاية الانتفاع كأنما بعث فيهم نبي مرسل، ما بين مكثر في الانتفاع ومقل، إن لم يصبها وابل فطل.

وسمعت شيخنا يقول ما رأيت مثل سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم في إرشاد الخلق وتدريجهم إلى الخير. لا يزال يقدم الرجل إلى الخير حتى يستحيي من الشر، وسمعت سيدي مولود بن محمد الشيخ الجكني يقول ما رأيت مثل سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم في التربية يربي بمسائل الفقه.

وسمعت شيخنا رضي الله عنه يقول سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم بلغ مرتبة الاجتهاد فوصف الاجتهاد حاصل فيه، وكان من أجل أشياخه عنده وأعظمهم عليه منة – وقال إنه لا يعدله عنده إلا الشيخ التجاني رضي الله تعالى عنهما جميعا، وعجبت من ذلك ظانا أنه شيخ تعليم له فقط، ثم سألته فقلت له سيدي عبد الله شيخ تربية لكم، وسيدي احمد التجاني شيخ ترقية لكم فسكت فعلمت أن الأمر كذلك، وكان الشيخ محمد الحافظ يقول فعلنا من خدمة الأشياخ ما لم نفعل من التعلم ولسنا

---

1. مجند العوافي في رسمي العروض والقوافي.
2. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.

نأسف على ذلك يعني أنهم حمدوا عاقبة تلك الخدمة. وقد نظم سيدي عبد الله كتابه مراقي السعود في لوحه.

ففي مدرسته تلك تدرس جميع التخصصات على اختلاف أنواعها فكانت موردا للظمآن إلى العلم يصدر منه كل ريان، استمع إلى كلام ابنه محمد محمود[1] الذي هو أقرب الناس إليه وهو أحد أساطين مدرسته، فكان من نوابغها وحملة علومها يقول : كان رحمه الله يفسر في الفقه خليلا وتحفة ابن عاصم ورسالة ابن ابي زيد القيرواني وابن عاشر والأخضري والمدونة والواضحة والعتبية، و الموازية، وابن الحاجب ومختصر ابن عرفة، والبيان والتلخيص لما في المستخرجة من التفصيل لابن رشد ومقدماته وذخيرة القرافي وغير ذلك.

وكان يفسر في العربية الأجرومية ولامية الأفعال والفريدة والألفية والتسهيل مع الاطلاع على مطولات الفن ومختصراته.

وكان يفسر في الأصول بن السبكي وفي البيان تلخيص المفتاح ونظمه نور الأقاح مع إطلاعه على مطولاته، وكان يفسر في المنطق السلم ومختصر السنوسي، وفي الحديث مصطلح الحديث وألفية العراقي وقواعد المنهج والتكميل لميارہ.

وكان يفسر في القرآن الذي كان يعكف على قراءته وتدريسه طوال شهر رمضان من كل عام، ويعكف على علومه المتعلقة بإتقان مقرئه وكتابته خاصة روايات الشاطبية والدرر اللوامع والتفصيل لابن غازي وكان يفسر في الحديث البخاري ومسلم وموطأ مالك، وفي العروض الخزرجية ونظم بن غازي على المتدارك، كما كان يهتم إلى جانب العلوم الظاهرة – بالصوفية، ويقال إنه أبلغ في الباطن من العلم الظاهر فقد ربى في العلم الباطن بعضا من تلاميذه. إلا أنه لم يتخذه شعارا له، كان يرى أن التربية التي يصل صاحبها إلى المعرفة دون المجازفة بالنفس هي تلك التي تحصل عن طريق العلم الظاهر والعمل به. وهذا ما جعله يربي تلاميذه بالعلم الظاهر وحب التقوى والزهد فيما سوى العلم وسيلة إلى طاعة الله تعالى فبطاعته يصل المرء إلى معرفته التي هي غاية أهل التصوف.

---

[1] الدر الخالد في مناقب الوالد.

لهذا يمكن القول بأنه غير وجه تاريخ بلده وأهله وأثّر تأثيرا كبيرا في بقية أنحاء الوطن بما أفاد به الساحة الثقافية. فالرجل انتهج نهج العلم الظاهر وكان شعاره العلم، ولكنهم يقولون إنه أبلغ في العلم الباطن[1] إلا أنه لم يعطه إلا لأربعة من تلاميذه هم الطوالب الأربعة[2] :

1. الطالب بن حنكوش العلوي
2. الطالب احمد بن اطوير الجنة الحاجي
3. الطالب احمد بن انويجم التاجوني
4. الطالب اعمر بن اعل السيد الطلابي

انظره في كلام الطالب احمد بن اطوير الجنة في رحلة المنى والمنه[3] بالحرف الواحد حيث قال :

حكاية : وقعت فيها صورة كشف من شيخنا قدس الله روحه ونور ضريحه وهي أنه ذات يوم صلى الظهر بمسجد تجكجة فلما سلم خاطبني وهو في المحراب وأنا في الصف الثاني ولم يخاطب غيري والمسجد ملآن من الناس فقال يا الطالب احمد هل عرفت ما مكث ابن القاسم عند إمامانا مالك رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وخطابه هذا إياي في العام الأول عنده فقلت له لا أدري فقال لي مكث عنده اثنتين وعشرين سنة عشرين منها في العلم الظاهر والسنتين في العلم الباطن فلما ذاق حلاوة الباطن قال يا ليتني جعلت العشرين في العلم الباطن والسنتين في العلم الظاهر.

فتفكرت في نفسي ما معنى هذا الخطاب المخصوص بي أنا فكان من أمر الله أني مكثت عنده اثنتين وعشرين سنة عشرون منها في العلم الظاهر، والسنتين في العلم الباطن في هذه المدة قرأت عليه علومه كلها التي قرأها في فاس مع أني كانت نيتي أن أمضي معه سنة واحدة. انتهى الاستشهاد.

---

1. نزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ.
2. الدر الخالد في مناقب الوالد.
3. رحلة المنى والمنة للطالب احمد بن اطوير الجنة.

إن شح المصادر المكتوبة بل انعدامها أحيانا يجعل الباحث يلجأ في الكثير من الحالات إلى النقل الشفهي وربما يتعرض هذا لشيء من المزايدات في بعض الروايات و إلى شيء من التقصير والتحريف في بعضها، ويؤسفني أن المدة التي أمضاها صاحبنا محل البحث في منطقة اركيب، لم نجد عنها شيئا يذكر لأن جل أهل ذلك العصر وما بعده يعتمدون في معلوماتهم على الذاكرة أكثر من اعتمادهم على التدوين، وفي ذلك ما فيه من هدر للتوثيق وعدم ضبط التواريخ والتعرض للضياع إلا أننا سنظل نبحث عن الكنوز التي تحويها منطقة اركيب من المعلومات عن تلك الفترة، ونعد القراء الكرام بأننا إذا ما عثرنا على شيء من ذلك فإننا سنجعله في ملحقات للكتاب إن شاء الله تعالى.

وهي فترة – حتى ولو لم نتمكن من الوقوف على ما تضمنته من أخبار – كانت حافلة بالعطاء والبذل فقد انتشر فيها العلم في تلك المناطق انتشارا واسعا، لا تزال بصماته بارزة في جميع القبائل المستوطنة في تلك المناطق، فنحن عندنا في مسقط رأسه، وفي قبيلته نسميه سيدي عبد الله لكن تلك القبائل حتى الآن تسميه سيدنا بالإضافة إليهم، ولا نجد منهم من يسميه إلا بإضافته إليهم ولهم في ذلك الكثير والكثير جدا من الحكايات التي لا يستوفيها المقام مع أن منها ما هو أقرب إلى خرق العادة وأنا دائما أتحاشى ذكر ذلك فهو نفسه يقول :

وينبذ الإلهام بالعـــــراء أعني به إلهام الأولياء

فمع أنه سماهم أولياء إلا أنه نبذ خوارقهم ولم يقبل ذكرها ولم يقبل جعلها تذكر، لكن المعروف أن كرمات الأولياء حق قال :

كرامة الولي حق ظهـــر منها كثير كرسالة عمـــــر

لنيل مصر وسماع ساريه منه النداء في البلاد النائيه

والمعروف أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أبطل عادة نيل مصر التي كانت شرطا في فيضانه كل عام إذ كانوا يزفون إليه عروسا كل عام يلقونها فيه مزينة زينة العروس وعندها يفيض النيل، ويزرعون أماكن الفيضان فلما فتح عمرو بن العاص مصر كتب بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب فكتب عمر رسالة يقول فيها : باسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب خليفة

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نيل مصر ، ان كنت تفيض بأمرك فلا تفض، وإن كنت تفيض بأمر الله تعالى فافض والسلام فجاء حامل الرسالة وألقاها في النيل فكان فيضانه في ذلك العام أقوى من كل الفيضانات السابقة حتى هدد المدينة بالغرق وظل يفيض كل عام حتى الآن فهذه كرامة لولي الله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

وكذلك نداؤه من على المنبر إذ كان أثناء خطبة صلاة الجمعة حيث توقف فجأة وقال بأعلى صوته :

(يا سارية الجبل) وكان سارية هذا قائد جيش المسلمين في واحدة من حملات فتوح الشام، وكان العدو يحاول حصاره فسمع سارية وهو في الشام نداء عمر من على منبر رسول الله (ص) في المدينة المنورة فهرع بجيشه إلى ناحية الجبل ليحمي به ظهر الجيش وبذلك توقى الهجوم عليه من تلك الناحية هذه أيضا كرامة لولي الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن هذا نعلم أن كرامات الأولياء لا مراء في صحتها لكنها لا عمل لها في الأحكام الظاهرة وهو معنى قول صاحبنا محل البحث : أعني به إلهام الأولياء

فالحقيقة التي لا غبار عليها أن الرجل جاء إلى بلده يحمل موسوعة علمية متشبعة بفكرة التجديد في شتى المناحي وخاصة في الناحية العلمية، فالرُجل في الواقع مجدد عصره كما صرح به الكثيرون من العلماء[1] فهذا الشيخ محمد المامي بن البخاري يقول عنه :

وفي رياض نقول ساقها العلوي في الطرد ما تشتفي منه المحازين

وهذا معناه أن ما قاله في كتابه طرد الضوال والهمل الذي ألفه بعد رجوعه بأقل من عامين إذ هو رجع سنة 1190 هجرية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم، وألف الكتاب سنة 1192 في تجكجة، وكان ثورة على فقهاء البلد، والمتصدرين للفتوى حيث يعتمدون في أحكامهم على النصوص الفرعية دون أن يكون لهم إلمام بعلم الآلة الذي يمكن صاحبه الفهم لأصول الفقه، وعلوم المعاني والبلاغة ولهذا نراه يبدأ في مقدمة الكتاب بقوله :

---

[1]. رحلة المنى والمنة للطالب احمد بن اطوير الجنة.

هذا وإني لما رأيت بلاد المغافرة معطلة الرسوم يتجاوب في عرصائها الصدى والبوم كما تناوح يوم الريح عيشوم، لبعد أطرافها عن أطراف العمارة، ومجاري ينابيع الحكم والإمارة...إلى أن يقول :

من يدعي الطلب في هذه البلاد فإن معولهم مختصر الشيخ خليل، كذا لا تراهم يفرقون بين المنطوق والمفهوم، ولا النص الظاهر الصريح من المحتمل. ولا صيغ العموم والمطلق من الخصوص والتقييد وقد ضمن في هذه الأبيات :

تصدر للتدريس كل مهـــــوس   بليد يسمى بالفقيه المـــــدرس

فحق لأهل العلم أن يتمثلـــــوا   بيتا قديما شاع في كل مجلس

لقد هزلت حتى بدأ من هزالها   كلاها و حتى سامها كل مفلس

ليس هذا وحده بل إنه في جميع كتبه وآرائه يعتبر بحق مجدد عصره في هذا القطر أو على الأقل أول داعية للتجديد في المناهج والطرق والأساليب ولكن دعوته إلى التجديد إنما هي من أجل حمل رجال العلم على التروي و التمعن، والبحث عن الحقيقة وفعلا فإن تأثيره في هذه الناحية كان قويا وهذا ما شهد له به كل الذين يسمون العلماء في تلك الفترة وفي الفترات التي تليها فهذا ابنه محمد محمود يقول[1] كان إليه المفزع في كل الفنون كان جامعا بين غزارة الرواية وجودة الدراية، وهذا صاحب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم يقول[2] مجدد العلم في بلاد شنقيط وهذا أحمد بن ألمين في كتابه الوسيط في تراجم أدباء شنقيط يقول : مثل ذلك وسبقت الإشارة إلى ذلك وغير هذا كثير. ولكن ما تركه لنا من التآليف المفيدة يدل على سعة معرفته، وقوة اشتغاله بالعلم فبالنظر إلى صعوبة الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي عاش فيها الرجل تجعل المرء يحار في هذا الرجل كيف استطاع أن يزاوج بين التدريس للطلاب الكثيرين، والقيام بمهام القضاء والإمامة والسياسة لأمور المنطقة في عهد الإمارات الحسانية، وبين تآليف هذه

---

1. الدر الخالد في مناقب الوالد.
2. مرجع زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم.

القائمة الضخمة من المؤلفات في المجالات المتعددة وسنذكر بعضا منها على سبيل المثال وليس الحصر:

1. مراقي السعود وعدد أبياته (1001) ألف وبيت واحد
2. نشر البنود وهو شارح لما قبله في مجلدين الأول (305) ثلاثمائة وخمس صفحات والثاني (356) ثلاثمائة وست وخمسون صفحة.
3. طلعة الأنوار في (305) ثلاثمائة وخمسة أبيات في مصطلح الحديث.
4. هدى الأبرار شرح لما قبله (104) مائة وأربع صفحات
5. نور الأقاح وشرحه فيض الفتاح في مجلدين الأول (260) صفحة والثاني (360) صفحة.
6. غرة الصباح، وشرحه نيل النجاح في مجلد من نحو ثلاثمائة صفحة.
7. روضة النسرين وشرحه يسر الناظرين في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم
8. طرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض مسائل العمل في القضاء والفتوى والعمل.
9. الجادة المطروقة في تطليق الزوج المحلوقة.
10. مبصر من به عمى في القراءات (نظم).
11. مطالع التنوير في آفاق التطهير.
12. تحرير المقالة في تحريم ونكاله
13. تعليق على تكميل المنهج لمبارة
14. صحيحة النقل في الأنساب
15. رسالة الروض في أنساب قبائل الحوض
16. رشد الغافل انتهى من تأليفه على ظهر لوت سنة 1224
17. منظومة في جواز رجوع الوالد في هبته لابنه
18. نظم مسوغات الفطر للصائم
19. طيب المرعى في حقيقة الاسترعاء
20. رسالة في حكم استعمال الدخان والشم

21. رسالة في القراءة بالجيم و الجيم الشديدة والمفتشية

22. النوازل وهي فتاوى فقهية.

وله كثير من الخطب في الأعياد والجمع وغير ذلك كثير وقد تحدث عنه الكثيرون من علماء عصره ومن بعدهم فنعتوه نعوتا تنبئ عن اعترافاتهم له بالسبق في حلبة العلماء والفقهاء، فالشيخ محمد المامي يقول[1] :

قد سودت سيد عبد الله أعصره ومسكة أمسكت عنه السلاطيــن

أن يفزع القلب لا تأمن طلائعه ولا المياسير منه و الميامـيــن

ترمون راياتكم والناس تنصرها والجمع من قبل الرايات مطعون

والشيخ محمد المامي هذا أدرك تسع عشرة سنة من حياة سيدي عبد الله هذا، وكان من أشهر علماء منطقة القبلة وإنشيري وتيرس وتعتبر شهادته مزكية لكل من شهد له.

وكذلك باب بن احمد بيب[2] الذي هو ابن عمه، ومعاصر له وتقدمت شهادته له في محل سابق من هذا الكتاب و باب هذا شهد له أيضا الشيخ محمد المامي المذكور هو و ابن عمه حرمة بن عبد الجليل شهادته الشهيرة في قوله :

كحرمة أو كباب بنى علــــي فإني منهما في الداخليـنــــا

وهذا عبد الله بن لمرابط سيد محمود وهو من خريجي مدرسته ومن خاصة تلاميذه المقربين له يقول في رده على ابن الرقيق :

أثرت من الأساد يابن الرقيــق هزبرا متى ترمق محياه تفرق

ورمت من الآطام أطول شاهق متى ترقه يابن الرقيق تزلــق

رويدك لا تركض حمارك إنمـ تعارض لوتدر به شاوتقنق[3]

والبحث في مجال التعريف بهذا الرجل وما أثنى عليه به علماء عصره ومن جاءوا بعده يطول، ولكننا نميل إلى الاقتصار على محل الفائدة في كل ما حمنا حوله

---

1. الدلفينة قصيدته المشهورة.
2. تاريخ موت العلماء لباب بن احمد بيب.
3. الدر الخالد في مناقب الوالد.

ابتعادا منا عما يمكن أن يؤدي إلى ملل المطالع الكريم والحقيقة أن صاحبنا كان حسنة من حسنات دهره قيضه الله ليكون سراجا في دجى ليل الجهل الذي كان سائدا في تلك الفترة في هذا القطر، فأسلوبه وطريقته ومنهجه في التدريس، والتدوين والتأليف، وطرقه لمجالات لم تكن مطروقة قبله جعل الكثيرين يعتبرونه مجدد عصره ومن أبرز مظاهر اعترافهم له بالفضل أننا لم نسمع قط منكرا عليه، ولم نسمعه ناكرا على غيره مع علمنا أن أول مشائخه المختار بن بون الجكني كانت له معاداة لبعض علماء عصره و خصومات مع بعضهم، وهو تلميذه، وقد عاصره في العلم وهم يقولون (المعاصرة تمنع المناصرة) وبدلا من ذلك قال لهم ربما يتعلم الرجل على آخر ثم يفوقه في العلم، وقد قال لهم مرة أثناء قدومه عليه في تجكجة : لاتمكن مخالفة ابن الحاج ابراهيم مادمنا في تكانت، وقد سبق الكلام في أول الكتاب عن أسباب ترك ابن بون للدخان والشم معا إثر سؤال وجهه إليه تلميذ لسيدي عبد الله فقال له السؤال ليس لك، وصديقتي ليست في كفة الخير، وأبطل استعمالها. ولما تقدم به العمر شد رحاله ميمما شطر تجكجة قائلا لم يبق إلا نصيب بن الحاج ابراهيم فوافاه الأجل المحتوم في طريقه إلى تجكجة.

هذه كلها شهادات من علماء عصره، ومن جاءوا بعدهم.

وقد تحدث في عدة مجالات منها مسألة الجيم.

مسألة الجيم

يقول محمد محمود بن سيدي[1] بالحرف الواحد : وجد عامة إقليمه يقرؤون بالجيم المفتشى، ويقول من له دراية منهم إن ذلك أفصح فخالفهم إلى الحق وهو إن الجيم ليس هو المفتشى، وإنما هو المقلقل[2] و من حججه على ذلك أن أهل التجويد وصفوه بالشدة، كما قال بن برى في نظمه لمخارج الحروف :

والشدة في أجدت قطبك ثمانية أحرف...

---

1. الدر الخالد في مناقب الوالد.
2. المقلقل هو الذي نقول له باللهجة المقمقم.

ومعلوم أن التفشي ينافي الشدة فإذا جئت بهمز وصل مكسور، وسكنته وليس هو من حروف التفشي قال

وهمز وصل جيء به مكسورا وسكن الحرف تكن خبيرا

وقد سئل عن الجيمين ومن يقرأ بهما فكان رده في غاية الاعتدال حيث قال إنهما قراءتان صحيحتان قرئ بكل منهما : قرأ بالجيم المعقودة من رأيت من أهل المغرب كلهم، والأصل بقاء ما كان على ما كان كما هو مقرر في الأصول، ولم نسمع بأحد من الفريقين ينكر على الثاني قراءته، ولو كان لخلدته الطروس لاهتمام السلف بتدوين ما هو أهون من هنا وذلك إجماع سكوتي يحتج به اتفاقا لشوبه بالرضى فلا يدخله السكوتي المشار إليه بقولنا في مراقي السعود :

وجعل من سكت مثل من أقره فيه خلاف بينهم قد اشتهر

فالاحتجاج بالسكوتي نـمـا تفريعه عليه من تقدمـــا

بالقيد الذي أشرنا إليه بقولنا :

وهو بفقد السخط والضد حرى مع مضى مهلة للنظـــر

وقد سمعت في مجالس المذاكرات إنهما لغتان ويشهد له ما مضى إذ الأمة لا تجتمع على ضلالة، وقد حدثني سيد عبد الله بن الفاظل بن باريك الله، أنه رأى قارئا فصيحا عند منبره صلى الله عليه وسلم يقرأ آية بهذا وآية بهذا ولم ينكر عليه أحد ممن حضر، ورأينا علماء فاس المحققين يقرؤون بقراءة أهل المغرب، ولا ينكرون على أهل المشرق وهكذا أهل المشرق فما بقي إلا السكوت والتسليم وعدم الخوض فيما لا علم به ولو فرضنا أن أحدهما غير عربي لصحت الصلاة به كما هو الأصح عند ابن رشد من الأقوال الستة في صلاة اللاحن كما نص عليه الحطاب وغيره، والمخالف للعربية جيم بعض فلاحة مصر فإنهم يقرؤون مثل جاء بالكاف المعقودة التي يقولون لها مكمكمة، ويدخل في صلاة القارئ بها خلاف اللاحن هـ.

قال بعضهم هذا أحق وأنصف ما سمعت في الحرفين ويؤيده أني حضرت ذات يوم سائلا سأل عالما فقال : سئل عنهما بعض أهل العلم فقال هما لغتان فصيحتان وكذلك عنده هو فلم ينه أحدا عن القراءة بهما. ويؤيده أن القرآن محفوظ من التبديل والتغيير، فلو كان أحد الحرفين غير قرآني لما قرأ به من قرأه، ولما تداوله من

تداوله حفظا للقرآن العظيم لا ما خاض فيه علماء العصر بل من ليس له علم، فكل من قرأ بأحدهما يشدد النكير على من قرأ بالآخر ويبطل صلاته وإمامته وهو إفراط وتفريط من الفريقين، فإن كل مفرط في حرفه مفرط في حرف الآخر، ويقول بصحة ما عنده تحكما والله أعلم. انتهى الاستشهاد بحرفه.

إنك ترى معي أخي القارئ مدى اعتدال الرجل وتوخيه الحق في كل الأمور، وذلك تورعا منه وحرصا على إدراك الحقيقة ولا غرابة في ذلك فهو معروف بشدة الورع ونكران الذات فهي أسباب خروجه من تجكجة فقد رأى مقتل مسلم غيلة فقال لا أسكن في بلد يسفك فيه دم مسلم بغير حق شرعي، رغم تعلقه الشديد بمدينته ومدينة آبائه وعشيرته، فقد كان يقول قصر بين السماء والأرض أحب إلي من خير البوادي ولكنه اختار البادية من ذلك اليوم حتى مات وكان لا يقبل الزكاة ويقول لست مصرفها فأخذها حرام علي، ومن أخذتها منه لم تجزه، وكان يمنع تلاميذه من أخذ عادات التلاميذ المعروفة عند الولائم وعند العقيقة وغيرها[1].

وكان لا يلتفت إلى يمينه ولا إلى يساره مخافة أن يرى شيئا غير جائز ولا ينظر إلا بين يديه، وكان ينشد دائما :

لا تلتمس من مساو الناس ما ستروا فيهتك الله سترا من مساويكا

واذكر محاسنهم إذا ذكـــــروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

و له مناقب كثيرة في الورع والاحتياط للنفس حتى لا تميل إلى شيء ولم يفعل مكروها منذ نشأ ولم يترك ندبا، فكان يوما في مجلس، فأخذ عودا فخط به حرفين على الأرض ساهيا ثم وضع اصبعه على رأس العود وظل يكرر الاستغفار ويضغط على رأس العود حتى ابتلعته الأرض ثم استغفر فوق رأسه ألف مرة، وله في هذا المعنى حكايات كثيرة لا أطيل بذكرها وكان كثيرا ما يقول :

والاحتياط في أمور الديـــــن من فر من شك إلى يقيـــن

وقد رزقه الله من التمكن من النفس والتروي في القول والعمل ما يعجز الواصفون عن وصفه، ولا أخالني أكاد أحيط بشيء من تلك الحكايات التي دأب على سردها من أدركناهم من تلاميذة تلامذته وأبناء أبنائه والله تعالى أعلم.

---

[1]. الدر الخالد في مناقب الوالد.

يقول عنه صاحب فتح الشكور : سيدي عبد الله عالم أثرى أصولي بياني مدرس يقتصر في الفتوى على محل الحاجة ولا يطيلها، وكثيرا ما يبني فتواه على علم الأصول لقرب المأخذ عنده في الأصول.

ويقول أحمد بن ألمين الشنقيطي في كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط كان أوحد زمانه في جميع العلوم لم يبلغ أحد من العلماء مبلغه في الحديث.

وكان في الحديث لا يبارى   كأنما نشأ في بخارى[1]

يقول آب بن اخطور إنه هو وابنه سيدي محمد يمتازان بالرشد في التآليف. ومعناه أنهما يقتصران على محل الحاجة من الكتاب المؤلف فيها فلا حشو ولا تقصير عن الغرض المقصود من هذا التأليف والشيخ آب بن اخطور عالم معاصر برع في علم الأصول الذي يعتبر سيد عبد الله إمامه في بلاد شنقيط كما سبق أن قلنا.

وصاحب فتح الشكور يقول سيدي عبد الله فهمه مصيب أخذ من الفتوى بأوفر نصيب، كامل القريحة والعقل وكان من العلماء العاملين، معمر الأوقات بالطاعات جامعا بين الشريعة والحقيقة، سريع الانقياد والرجوع إلى الحق، قائما بامتثال الأوامر واجتناب النواهي متبعا للسنة سنيا لا تدوم معه البدعة بل يكرهها، ويقول إذا ظهرت البدعة وسكت العالم استوجب غضب الله تعالى، فارا بدينه من الفتن، معظما للأولياء والصالحين معظما للعلم ومن تعظيمه له تعظيمه للكتب، فلا يجعل الكتاب على ساقه وهو متطهر فضلا عن غير ذلك، سئل يوما عن تعظيمه لغمد الكتاب، فقال بديهة ذل الجار إذلال المجير انتهى كلام صاحب فتح الشكور.

زهده في الدنيا

كان رحمه الله زاهدا في الدنيا زهدا لا مثيل له فلم يعجبه شيء منها، ولم يهتم بها لا لنفسه ولا لأبنائه، وقد قيل له في ذلك فقال كلما لا أحبه لنفسي لا أحبه لأبنائي وكثيرا ما ينشد :

لو كانت الدنيا ثوابا لمحسن   إذن لم يكن فيها معاش لظالم

---

[1]. باب بن احمد بيب في تاريخ موت العلماء.

فقد جاع فيها الأنبياء كرامة وقد شبعت فيها بطون البهائم

وكانت الهدايا تتوارد عليه، ولم ينظر يوما في قدرها ولا نوعها بل ينفقها قبل أن ينظر إليها، فلم يطبه زخرف الدنيا ولا زرجونها ينقل عنه في ذلك من الحكايات ما لا يتصوره العقل وكيف لا وهو التقي النقي الزاهد العابد الذي لم تأخذه في الله لومة لائم. ولم تره يوما إلا وهو صائم، ولم ينم ليلا بل يبيت طول الليل و هو قائم وله في ذلك كله ما الله به عالم. استمع إلى ابنه محمد محمود يقول في زهده : كان رحمه الله لا يحب شيئا من الدنيا سوى الكتب، فإنه يحبها حبا جما نظر يوما إلى نسخة من القاموس فإذا حباكنها قد انفتحت فغضب على تلامذته غضبا شديدا وقال قال صلى الله عليه وسلم لا توتوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها من أهلها فتظلموهم، وقال الإمام الشافعي :

سأكتم علمي عن ذو الجهل غاية ولا انثر الدر النفيس على الغنم

فإن يسر الله الكريم بفضلـــــه وصادقت أهلا للعلوم وللحكـم

ثبتت مفيدا واستفدت ودادهـــم والا فمخزون لدى ومكتتـــم

فمن منح الجهال علما أضاعــه ومن منع المستوجبين فقد ظلـم

ولا يعجبه شيء منها ولا يفرح لحصوله عليه ولا يسيئه فواته، ولا يزدادواهبه عنده حبا.

ومن زهده أنه تاتيه المغافرة ونحوهم يريدون الهجرة إليه والدخول تحت ظله فيطردهم عن ساحته، ويقول لهم كونوا مع الفلانيين من الزوايا فاني لست من أهل الدنيا ولا أحبهم ولا أقبلهم ومن زهده عدم مبالاته بالترف لافي الملبس ولا في المأكل ولا في المسكن، ولا يلوي العمامة إلا يوم عيد، ويظل يوم الحر ظاعنا إلى الليل، لا يضع شيئا على رأسه وقدم له يوما أحد التلاميذ عمامة يتقي بها وهج الحر فألقاها عنه وقال إن العمامة شأن من يبحث عن الشهرة ثم ذكر البيتين :

جعلوها لأبناء الرسول عمامـــة إن العمامة شأن من لم يشهـــر

نور النبوءة في كريم وجوههـــم يغني الشريف عن الطراز الأخضر

وسببها أن المصريين كانوا يميزون بين الشرفاء وغيرهم بالعمامة انتهى الاستشهاد[1].

[1]. الدرر الخالد في مناقب الوالد.

ورعه وعبادته

كان رحمه الله تعالى معلق القلب بالمسجد يعبد الله أناء الليل وأطراف النهار، وأنك لتعجب كيف ينتزع من وقته شيئا للكتابة وهو الذي ملأ الدنيا كتبا وخطبا، وأنظاما وأجوبة على النوازل، وكيف ينتزع من وقته قسطا ليعلم الناس وهو الهجر الذي صدر منه كثير من العلماء في شتى فنون العلم، لكن الله زكى أيامه ولياليه ويسره لما خلق له، وقد خلقه الله ليكون هكذا.

كان مواظبا على نشر العلم وتلاوة القرآن أناء الليل وأطراف النهار، وكان يولي اهتماما كبيرا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مواظب على فعل نوافل الخير كلها، كان لا يفعل خيرا ويتركه بعد ذلك، وكان يقول أفضل العبادة أدومها ويواظب على ورده لا يختلف وقته نهارا ولا ليلا وهو مائة من لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد حزب العشاء وحزب الصبح، ويقرأ قبله لإيلاف قريش بعد الفاتحة ثم دعاء مخصوص، وكان يواظب على قراءة الحزب جماعة كما قال في كتابه رشد الغافل :

والذكر مع قراء الأحزاب جماعة شاع مدى الأحقاب

وكذلك قوله أيضا في رشد الغافل :

والجمع للذكر وللقـــــرآن جرى به العمل في البلدان

ويقول إنه امتثال لقوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى) وهذا تعاون عليهما ظاهر لا يحتاج إلى مزيد من التبيان.

وكان يحب الجهر بالذكر، وبقراءة القرآن وأصله حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله في الملأ الأعلى.

قال المازني ظاهره يبيح الاجتماع لقراءة القرآن في المساجد، وإن كان مالك كره ذلك في المدونة ولعله إنما قال ذلك لأنه لم ير السلف يفعلونه مع حرصهم على الخير.

وكان يأمر بالاجتماع لأمداح النبي صلى الله عليه وسلم وخاصة في شهر مولده عليه الصلاة والسلام وكان يعقر للمداحين، ويحضر لهم أنواع الأطعمة والأشربة، وغير ذلك، ولم يغير تلك العادة حتى لقي الله تعالى.

وكان يغلب عليه الخوف من الله تعالى فلم يره أحد ضاحكا قط، ولكنه قد يبتسم، ويقول القهقهة محرمة عند الصوفية ومكروهة عند الفقهاء ولو اطلع الفقهاء على أنها تميت القلب لحرموها كأهل الصوفية.

وهذا ما وصف به سيدي محمد البصيري ضحكه صلى الله عليه وسلم حيث قال :

سيد ضحكه التبسم ومشـــ ـــيه الهوينا ونومه الإغفاء

هكذا كان رحمه الله تعالى، لكنه إلى جانب هذا كله كان يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، فقد جاء من رحلته إلى مسقط رأسه تجكجة وعشيرته (إدوعل) فوجدهم قد ابتعدوا عن السلم، واشتغلوا بالحروب بينهم، يتقاتلون لأبسط الأسباب، ويحكمون لغة القوة، ويمارسون حمية الجاهلية يقتل الرجل منهم البريء ثأرا لقتيل لا حق له في الأخذ بثأره ولم يكن له صلة بالقاتل سوى أنه ابن عمه أو من فخذه فحاول الأخذ بأيديهم إلى سنة الله ورسوله وتحكيم شرع الله فيما يشجر بينهم، لكنهم أبوا عليه بذلك وناصبوه العداء، وخاصة منهم أهل النفوذ والامتياز، الذين لا يقبلون أن تمس الشريعة مصالحهم المثبتة لديهم بالعادة والامتياز.

وقد احتدم الصراع بينه وبينهم لدرجة محاولاتهم الكثيرة للتخلص منه جسديا، و إن كان الكثير من أصحاب الأطروحات والمؤلفين الذين تناولوا هذه النقطة يرجعون ذلك إلى ما يسمونه (الحسد) وإن كنت لا أرجع الأمر إلى هذا وحده، بل إلى أشياء أخرى معه، و إن كنت لا أستبعده بالمرة لأن الغيرة غريزة إنسانية لا تحكم فيها والرجل أعطاه الله من العلم والجاه والشهرة ما يحسد عليه ولكنه عالج الأمر بحكمة ورشاد نادرين. فقد ظهر أمامه اختياران : إما أن يجابه قومه و إخوته بالمثل فتكون الفتنة وهو الذي كان يدعوهم إلى تسوية الأمور بالحكمة ولغة العقل وإما أن ينأى بنفسه عنهم وينهي النزاع معهم وهذا ما جعله يرحل عن المدينة إلى البادية ويوقف النزاع مع قومه.

خروجه من تجكجة إلى البادية وأسبابه

بعد مدة ثمانية عشر عاما من المقام في تجكجة المدينة أمضاها الرجل شيخا لمردستها التي هو مؤسسها، وإماما راتبا لمسجدها يحاول – وبشتى الوسائل – انتشال قومه ومدينته من مستنقعات الرواسب الموروثة من الامتيازات والاعتبارات المستحكمة في الكثير من الشؤون الاجتماعية والسيا سية والدينية، ويحاول القضاء على الفتن والصراعات التي تحدث بين بطون قبيلته، وبين أفخاذها حينا بعد حين. وفي سبيل ذلك تعرض للكثير والكثير جدا من الصعوبات، وحتى من المحاولات الهادفة أحيانا لتصفيته الجسدية، لكنه لما يئس من القضاء عليها بالطرق السليمة، لجأ إلى تجريد قومه من الأسلحة ليقطع عليهم الطريق تماما كما فعل جده مع قومه في حرب شنقيط التي سبقت الإشارة إليها في محل من هذا الكتاب، وذلك بالرحيل من شنقيط إلى تجكجة كما فعله هو مع هؤلاء برحيله عندما تضافرت عليه العوامل الآتية :

1. قضية تجريدهم من الأسلحة التى أثارت حفيظتهم عليه و إن كانت لصالحهم.
2. منافسة معاصريه من بني عمه الأقربين، ولا أريد أن أقول ما يقوله الآخرون[1] من كونه (الحسد) وحده فالمعاصرة تمنع المناصرة
3. رغبته في تبليغ رسالته العلمية إلى من لم تبلغهم بعد.
4. كونه مدينا تحوي مدرسته جما غفيرا من الطلبة أيسر عليه الإنفاق عليهم في البادية من ألبان الحيوانات ولحومها ومزارعها المنتشرة في البوادي إلى جانب وسائل الإضاءة وغيرها مما لا يتوفر في المدينة.
5. كونه هو المشرع لإمارة تكانت وهي بدوية ويحتاج الاتصال بها دائما إلى وجوده في البادية.

---

1. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.

كل هذه وغيرها أسباب قد تكون وراء خروجه من المدينة مع علمنا بأن التاريخ لابد وأن يعيد نفسه، فلقد كانت رحلة جده الثاني من شنقيط إلى تجكجة موقفه ترتب عليها قيام مدينة تجكجة التي أصبحت فيما بعد جوهرة في نحر الوطن كله كما ترتب عليها إطفاء نار حرب ضروس كادت أن تأكل الأخضر واليابس وتؤدي إلى فناء القبيلة كلها وبالتالي زوال مدينة شنقيط من الخارطة كما حدث في تنيكي.

وهذا ما فعله هو مع قومه عندما يئس من الأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

خرج من أحب البلاد إليه قائلا ما قاله صلى الله عليه و سلم الهم إنك أخرجتني من أحب البلاد إلي فأنزلني في أحب البلاد إليك. وكان من أهم ما ترتب على هذا الخروج الأمور الآتية :

1. سحب البساط من تحت أقدام مناوئيه من بني عمومته وقطع الطريق عليهم، وذلك عندما جاء إلى المسجد يوم الجمعة فوجد رجلا يخور في دمه مقتولا غيلة، الشيء الذي أثار غضبه، فقال ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها...الخ واتجه من يومه شطر البادية، وافتتح مدرسته الثانية فيها واستمر عطاؤه العلمي إلى أن مات.
2. أنه وجد مناخا خاليا من المؤامرات والمحاولات استتب له فيه الأمن ونشر ما شاء الله أن ينشره من العلم، ولاشك أن للهجرة بركة دائمة كلما دعا لها داع، فقد قاده اجتهاده إلى هذه الرحلة ولاشك أنه مجتهد تورع عن الاجتهاد(1) كما يقوله بعض من كتبوا عنه، وكانت الفترة ما بين خروجه من تجكجة إلى البادية ورجوعه إليها شبه مجهولة لأننا لم نظفر بما فيه الكفاية من أخبارها اللهم إلا ما كتبه صاحب هدية الصمد في مناقب الجد الشيخ إسلم بن محمد احيد فهو وحده الذي ترك لنا عنها شيئا مكتوبا، لكننا – حسبما يرويه لنا من أدركناهم من أبناء أبنائه وأحفاده(2) علمنا بأنه مكث في البادية (23) عاما بمعنى أنه خرج

---

1. نزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ.
2.

من تجكجة إلى [1]البادية سنة 1210هـ، فقد ذكر لنا الشيخ إسلم بن محمد احيد أنه مكث ثلاثة وعشرين عاما في البادية بعضها في منطقة اركيبه، وبعضها في بادية تكانت ياتي إلى تجكجة في مواسم (الكيطنة) موسم جذاذ التمور ثم يعود إلى البادية القريبة منها، وكانت هذه المدة من أهم سنوات حياته العلمية حيث تصدر فيها على يديه رعيل كبير من العلماء الأجلاء، كما ألف فيها بعض كتبه و أن كان أكثرها ثم تأليفه في تجكجة المدينة حرسها الله كما يقول هو كلما ذكرها.

فكتابة فيض الفتاح على نور الأقاح انتهى من تأليفه في مدينة تجكجة في شهر جمادى الأخيرة عام 1191 أي بعد عودته بعلم واحد وكتابه يسر الناظرين على روضة النسرين انتهى من تأليفه في تجكجة منسلخ جمادى الأولى عام 1201هـ وكتابه نيل النجاح على غرة الصباح انتهى تأليفه في تجكجة عام 1203هـ وكتابه رشد الغافل انتهى من تأليفه على ظهر لوت[2] بعد خروجه إلى البادية عام 1224م هـ وكتابة هدى الأبرار على طلعة الأنوار انتهى من تأليفه فاتح المحرم عام 1205 بمحروسة تجكجة وكتابه مراقي السعود انتهى من نظمه في مدينة تجكجة 1207 وانتهى من شرح نشر البنود في البادية سنة 1214.

وهكذا تواصلت كتاباته وتأليفه دون انقطاع، بل إن مدته في البادية يسرت له من وسائل الاستمرار في عمله ذلك ما لم يتيسر له في المدينة، حيث الراحة النفسية والهواء الطلق وبساطة الحياة البدوية، والبعد عن تعقيدات الحياة المدنية ومشاكلها اليومية، كل ذلك معين على صفاء القريحة.

---

[1] محمد الأمين بن محمد أحيد – محمد أحمد بن ممون – خطرى بن الحضرمي

[2]. لوت طريق معروفة يصعد منها إلى ظهر تكانت ولها أضاة معروفة يسمونها بالدارجة عندهم (الكلتة) يقول سكان تلك المنطقة أنه استحم فيها ذات يوم فصارت لها بركة في المواشي التي تشرب منها.

مكانته العلمية

لا يختلف اثنان من الذين كتبوا عنه ولا من الذين لم يكتبوا عنه، على اعتباره مجدد العلم في عصره، وفي قطره، وكلهم يعتبرونه حجر الزاوية في بنيان النهضة العلمية والدينية التي عرفها القطر الشنقيطي في تلك الفترة. ويعتبرونه أبا للمدرسة الأصولية كما سبقت الإشارة إليه، وكتبه حتى الآن تعتبر أهم المراجع لدراسة فن الأصول.

فكل علماء هذا القطر، وكل متقفيه يعطونه مكانة علمية عالية، وبعضهم يقول إنه مجتهد تورع عن الاجتهاد، وبعضهم يقول إنه أرسخ قدما في الصوفية والعلم الباطن من العلم الظاهر، ولو كان يشير أحيانا إلى أحوال أهل الصوفية ويصف أذكارهم وحلقاتهم، ومواجيدهم كقوله عازيا :

والرقص فيه دون هجم الحال   ليس على طريقة الرجال

ومن يكن يقوى على السكون   فإنه أسلم للظنـــــــون

فإذا ما وقفت على وصفه لحلقاتهم وأذكارهم وآدابها وما ينبغي فعله فيها، وما لا ينبغي فعله تشعر وكأنك إمام واحد منهم[1] ولكنه مع ذلك عالم سني محافظ يتمسك بظاهر الشرع، ولا يميل عنه، ولذلك جعله علماء المنطقة مرجعا في أقواله وأفعاله، فلا تكاد تقف على كتاب لأحدهم إلا وجدته يرجع في كثير من أحكامه إلى كلام سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم.

فالشيخ محمد حبيب الله بن مايابا الجكني يعتمد علي كتبه في كتابه زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم يقول في الجزء الأول من هذا الكتاب (ص 331) سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم مجدد العلم ببلاد شنقيط. ويقول عند كلامه على الإمام المهدي انظره في روضة النسرين عند قوله.

نزوله للأرض مثل الشمــــس   لأنه سمي مقام الحـــــــدس

---

[1]. انظره في كلامه في روضة النسرين عند كلامه على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

كما يعتمد كلام ابنه سيدي محمد في كتابه مجدد العوافي عند قوله :

الشعر موزون الكلام العربي   مع قصد وزنه بوزن عربي

فلم يكن حديثا أو تنزيـــــلا   كذللت قطوفها تذليــــــلا

وعند قوله :

وبعد فالعروض من خير الأرب   لأنه ميزان أشعار العرب

وتلك آله علوم الشـــــــــرع   فشرف الفرع ففرع الفرع

وعند قوله مشيرا لوجه تسميته بالعروض

وسمى العروض أن الشاعــرا   يعرض شعره سابــــــرا

أو إن ربي بالعروض أرشـدا   لوضعه الخليل نجل أحمدا

وأشار في نفس الجزء الأول إلى ما قاله ناظم نوازل سيد عبد الله :

من ترك الزوجة عمدا تخرج   بادية أطرافها تبـــــرج

فلا إمامة و لا شهــــــادة   له وإن جرت بذاك العاده

ولا له قسيط من الزكـــــاة   ولو فقيرا مظهر الشكــاة

كما نراه يعتمده في الجزء الثاني من هذا الكتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم حيث يقول وقد صرح به العلامة المحقق مجدد العلم في بلاد شنقيط سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم عند قوله :

ومن علا بالمشرقي رجلا

انظره في الجزء الثاني من زاد المسلم (ص 91)

واعتمد كلامه في طلعة الأنوار في (ص 132) من الجزء الثاني عند قوله :

وآخر القســـمين دون الأول   والأول الصحيح عنه معتلـى

إن لم يك الأول صاحب طرق   وإن يكن صح كلولا أن أشق

واعتمده في (ص 160) من الجزء الثاني عند قوله :

ومن ابت برجعة المطلـــق   حتى ينيل وهو كالفرزدق

فقال واعدا بذلك جيــــــــر   والسر قائل بنات غيـــر

فوعدها المرغوب غير لازم   به الوفاء وهو غير آثـــم

واعتمده (في ص 182 من ج 2) عند قوله في نور الأقاح :

قف واستمع مسائلا قد حكموا بكونها بالابتداء تلـــــزم

صلاتنا وصومنا وحجنـــــا وعمرة لنا كذا اعتكافنـــــا

واعتمده في نفس الصفحة عند قوله في نور الأقاح أيضا

ايرادك اللقط مع اللذ قابلـــــه على ترتب يرى المشاكلـــه

واعتمده في طلعة الأنوار عند قوله :

فالطرف الأعلى من الإعجاز مما به القرآن ذو امتيـــــاز

واعتمده عند قوله :

وما روى عن صاحب مما منع فيه مجال الراي عندهم وقع

واعتمده عند قوله :

ومرسل الأصحاب قل متصل إذ غالبا من الصحابى يحصل

واعتمد كلامه في مراقي السعود عند قوله :

وفي سياق النفي منها يذكر

وعند قوله في المراقي أيضا :

وليس في الواجب من نوال عند انتفاء قصد الامتثال

فيما له النية لا تشتـــــرط وغير ما ذكرته فغلـــط

أما في الجزء الثالث من كتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم فقد اعتمد صاحبه كلام سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم في النوازل عند قوله :

والاجتهاد في محل النص كتارك العين لأجل القص(ج3، ص91)

كما اعتمد كلامه في روضة النسرين عند قوله :

ومن نوى للخير لكن قد غلب عنه فاجر ما نوى له كتب(ج3، ص157)

واعتمد كلامه في مكفرات الذنوب عند قوله :

يكفر القديم والأخيـــــرا حج وضوء مسبغ تكفيرا (ج3، ص353)

واعتمده في نور الأقاح عند قوله : إيرادك اللفـــــــظ (ج3، ص276)

واعتمده في مراقي السعود عند قوله :

ثم التزام مذهب قد ذكرا صحة فرضه على من قصرا (ج3، ص280)

وعند قوله :

وحمل مطلق على ذاك وجب   إن منهما اتحد حكم وسبب(ج3، ص315)

أما في الجزء الرابع من هذا الكتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم فنراه يعتمد على كلامه في مراقي السعود عند قوله :

للقول والفعل وللإقـــــرار   قسمت السنة باختصار (ج4، ص49)

وعلى كلامه في النوازل عند قوله :

ولا يجاعل على المجنـــون   إلا كثير البرء للجنون

وعلى كلامه في روضة النسرين عند قوله :   ومن نوى للخير (ج4، ص803)

وعلى كلامه في طلعة الأنوار عند قوله : كلام راو بالحديث اتصلا(ج4، ص118)

وعلى كلامه في مراقي السعود عند قوله:وهي ما اتصاف إلى الرسول (ج4، ص412)

وعلى كلامه في طلعة الأنوار عند قوله : كلام راو بالحديث اتصلا(4، ص489)

كل هذا وغيره يدل دلالة قاطعة على المكانة العلمية التي يعترف بها العلماء لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم، فهذا أحد العلماء البارزين المتبحرين في علم الحديث نراه يجعل كلام صاحبنا أهم مرجع يرجع إليه في أجزاء كتابه الخمسة التي هي كتاب زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، وكذلك غيره من المؤلفين الذين ألفوا في بلاد شنقيط حتى الآن فلا أحد منهم - إلا ما ندر - يخلو له كتاب من الرجوع إلى كلام سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم. وهذا بحد ذاته اعتراف إجماعي بمكانته العلمية من العلماء بل والطبقات المثقفة وغير المثقفة كلهم يعطونه المكانة العلمية العالية، ومنهم من يقول إنه أبلغ في العلم الباطن من العلم الظاهر[1] إلا أنه لا يحيد عن تعاليم الشرع الظاهر مع أنه ربما أشار إلى ما يفهم منه رسوخه في العلم الباطن، لكن شهرته العلمية وأسلوبه في التربية يدل على أنه عالم سني متمكن.

[1]. انظره في كلامه في روضة النسرين عند كلامه على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

مكانته السياسية والاجتماعية

سبقت الإشارة إلى محاولته إيجاد حكم إسلامي في البلاد بشكل ما، وكان يدير سياسة إمارة تكانت من الناحية الشرعية تحت مظلة الأمير محمد بن محمد شين، ولكن تلك المحاولة لم يتم تنفيذها الفعلي لأسباب عديدة إلا أنه ظل مؤثرا في مجريات الأمور السياسية في تكانت أينما حل وأينما ارتحل لقوة صلته بالأمير.

كما أن مكانته الاجتماعية معروفة فهو غصن من دوحة أسرة آل الإمام وهي أسرة تتمتع في القبيلة بمكانة اجتماعية مرموقة خاصة من الناحية الدينية. والمعروف أن الدين الإسلامي دين يهتم بالأمور الاجتماعية ويوليها اهتماما خاصا، يهتم بالتكافل الاجتماعي، ويهتم بصلة الأرحام ويهتم بتكوين الأسرة، ويحافظ على التوادد والتراحم قال تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى) وقال صلى الله عليه وسلم : "صلوا أرحامكم ولو بالسلام"، ويقول "من سره أن ينسأ له في عمره ويزاد له في رزقه فليصل رحمه" أو كما قال.

لهذا وغيره نرى أن مكانة صاحبنا السياسية والاجتماعية لا تحتاج إلى مزيد من التوضيح فهو إمام بن الأئمة. أبوه إمام وجده إمام وجده الثاني قائد الرحلة من شنقيط إلى تجكجة تلك الرحلة المباركة التي حقنت الدماء وأنهت النزاع، وأدت إلى قيام مدينة تجكجة. و هو شيخ ضرير مقعد يشتم التربة، فآباؤه وأجداده أعلام في قبيلتهم المعروفة بعراقتها في العلم والسيادة في القطر الشنقيطي، فشنقيط التي هي أم الوطن مدينتهم التي أقاموها في قلب الصحراء وحولوها إلى بساتين وواحات غناء من النخيل، وجعلوا منها عاصمة طبقت شهرتها على العالم الإسلامي والعربي، حتى أن سكان الصحراء ما بين الساقية الحمراء شمالا، وبلاد السودان جنوبا، والمحيط الأطلسي غربا يعرفون بالشناقطة، فهذه المدينة بناها أجداده من جهتي الأب والأم، ففضل طرفيه (إدوعل، ولقلال) معروف لدى الكل لا يحتاج إلى مزيد.

أبوه الحاج ابراهيم

مولود سنة 1112 هـ وهو عام يعرف بعام موت آقزازير[1] وفيه وقعت وقعة صركاكه بين أهل تجكجة إدوعل فيما بينهم. وهو الإمام الثاني لمسجد تجكجة العتيق، وهو عالم جليل تقي ورع، متقشف[2] يحب العزلة عن الناس قليل الكلام كثير الصيام، متعبد ناسك متواضع في ملبسه ومأكله، سافر إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج، وأخبر أخاه الحاج محمد أنهما سيموتان في تلك الغيبة، وتوفي عام 1154 أي بعد مولد ابنه محل هذا البحث بسنتين تقريبا، إذ هو مولود سنة 1152[3] وأمضى في سفره ذلك ثلاثة أعوام فوافته المنية سنة 1157 قافلا في طريق العودة إلى وطنه في قرية من قرى الصعيد المصري يقال لها جده، وبنوا عليه قبة لما رأوه من بركاته وصار قبره مزارا حتى الآن كما سبق ذكره ، ويكفي دليلا على فضله أنه هو كان يقول لابنه محمد محمود أرجو من الله أن تكون مثل أبي لا مثلي لأن الناس غلبوني على الدخول في أمور دنياهم فتعين علي ذلك كما سبق ذكره أيضا.

فمكانة الرجل الاجتماعية أصيلة ضاربة بجذورها في أعماق الأصالة فهو غصن من دوحة العلويين الوارفة، ولا أخالني أضفت جديدا إذا قلت إنه ذو مكانة اجتماعية عالية شامخة راسخة في العلو والشموخ في قبيلته.

ولا إخالني أضفت جديدا إذا قلت إن قبيلته ذات شهرة ومكانة عالية بين قبائل القطر فهي التي بنت شنقيط أم الوطن، وذلك دأبها كلما حلت أو حل رجال منها بلدا أول ما يبدؤون به حياتهم فيه التعمير (بناء الدور، حفر الآبار، غرس النخيل، التجارة، التعليم...الخ) هكذا فعلوا في تجكجة وفي العيون، وفي كيفه، وفي المجرية، وفي كنكوصة، وفي العين الصفراء وفي مناطق القبلة، وفي القدية، وفي لفطح، وفي

---

1. حوليات مسجد تجكجة.
2. الدر الخالد في مناقب الوالد.
3. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط.

كندل، وفي بومديد وفي كل بلد وطئته أقدامهم، وهي قبيلة معروفة بكثرة العلماء والصلحاء، وليست كباقي القبائل الموريتانية التي ظلت بدوية حتى عهد الجفاف المدمر الذي دام قرابة عشرين سنة وأتى على الأخضر واليابس، أهلك مواشيهم ومزارعهم، وأرغمهم على التقري، بل أنها ظلت قبيلة مدنية على مر تاريخها حتى أنها تجعل التبدي وصمة عار تصم بها من تبدى منها فيقولون بلهجتهم المحلية (إدوعل الظل، وإدوعل الشمس).

من هذا ومما سبق نعلم أن الرجل ذو مكانة اجتماعية عالية ورثها كابرا عن كابر، ولكنه لم يكن كمن يقول كان أبي بل إن لسان حاله كان يقول ها أنا ذا منشدا :

وما سودتني عامر عن وراثة   أبى الله أن أسمو بأم ولا أبي

وأيضا :

نفس عصام سودت عصامـــا   وعلمته الكر و الإقدامـــــا

<u>كراماته :</u>

من كراماته ما نشر الله على يده من العلم، ومنها أنه ألف كتبا كثيرة ينظمها ويشرحها هو فلم يترك شيئا يشرحه أحد بعده ومنها أنه لم ينكر عليه منكر رغم كثرة العلماء في عصره وفي بلده وهم يقولون (المعاصرة تمنع المناصرة) فعلماء عصره يعترفون له بالفضل، وبالتسليم لكل ما صدر عنه يقول الشيخ محمد المامي:

وفي رياض نقول ساقها العلوي في الطرد ما تشتفي منه المحازين[1]

يعني أن كتابه طرد الضوال والهمل يشفي الغليل فيما جاء فيه من الإيضاح لمشاكل القضاء، والفتيى، وقضايا الأحكام، ومفاهيمهما وما يتعلق بذلك كله.

وباب بن أحمد بيب[2] وهو علوي ابن عمه، لكنه لم يكن من أبناء عمه الذين تربصوا به، وناصبوه العداء يقول :

والشيخ عبد الله نجل ابرا   هيم أجل العلماء قـــــدرا

---

1. الدلفينية قصيدة مشهورة تحدث فيها عن قضايا متعددة.

2. تاريخ موت العلماء الأعلام لباب بن احمد بيب العلوي.

إلى أن يقول :

أحيا علوم الشرع حتى ظهرت   وأهلك البدعة حتى دثـــرت

طود علوم ماله نظــــيــــر   يزول و هو لم يزل ثبيــــر

ومن كرامته أنه لما توفي بني عليه بيت في مفازة من الأرض لا تحميه أبنية أخرى، ولا تـــقيه. مبني بالطين الرخو والحجارة الغير مهمشة وهو الآن يناطح العواصف الهوجاء وعاتيات السواري والعوادي ولم يتأثر بها ولم يؤثر فيه طوال 189 مائة وتسعة وثمانين عاما حتى الآن.

ومن كراماته أن هذا البيت بناه أو على الأصح أشرف على بنائه تلميذه التقي بن اطوير الجنة على أساس أنه يسع قبرين : قبر الشيخ، وقبره هو، ولما دفنوه حفر التلميذ تقي الدين قبرا عند ظهر شيخه، يريده لنفسه، وبعد فترة غير طويلة توفي تلميذه عبد الله بن لمرابط سيد محمود فجاءوا إلى التقي يطلبون منه ذلك القبر ليدفنوه فيه فأبى فتوسلوا له بابن شيخه محمد المختار بن سيدي عبد الله فاشترط عليه أن يكتب له وثيقة بخطه تنص على أن لا يطلبوا منه مثل هذا إذا حفر قبرا آخر فكتب له تلك الوثيقة، وبعد مدة توفي محمد المختار نفسه فجاءوه ثانية يطلبون منه القبر لمحمد المختار فأخرج لهم الوثيقة وقال لهم هذا خطه هو، فتركوه له وحفروا قبرا عند ظهره لمحمد المختار، وبقي قبره هو شاغرا إلى أن مات بعد عمر طويل، ودفن في نفس البيت بعده هو الطالب بن حنكوش وثلاثة من أبناء الشيخ نفسه حتى صار في نفس ذلك البيت الذي بنى على أساس قبرين صار فيه تسعة قبور، ولا يزال قابلا لقبر آخر حتى الآن.

خريجو مدرسته حسب انتماءاتهم القبلية

ومن كراماته : ما نشر الله تعالى على يده من العلم حيث لم ياته طالب علم إلا صدر ريانا من العلم والدين، فكل الذين تعلموا عنده صاروا أعلاما في قبائلهم، وهاهي ذي أسماؤهم وانتماءاتهم القبلية :

<u>قبيلة إدوعل</u> :

- **الطالب بن حنكوش** : عالم جليل وولي من أولياء الله كان من أخص تلامذته وأخلصهم لازمه طيلة حياته وتولى مدرسته بعد وفاته، وتولى القضاء بعده، ويكفي من عناية شيخه به أنه أمر من يتوسلون به بأن يقرنوا معه اسمه، وقبله أيضا، إذ يقولون (يا الطالب وشيخك سيدي) فاستمرت حتى الآن، ويقال إنه لم يعط العلم الباطن إلا لأربعة هو أحدهم توفي سنة 1816 مدفون معه في بيت واحد.
- **عبد الرحمن بن اطويلب** : ابن عمه وابن أخته فاطم بنت الحاج ابراهيم، وكان من ألمع شباب القبيلة، كانوا يقولون له (الشاب العاطف) لأنه أفتى في نوازل عديدة وهو عاطف على رقبة جمل يداوي نقبا في ظهره، كان عالما وقويا في نفوذه في شؤون القبيلة، وكان محافظا وحريصا على مركز عائلته في القبيلة، يدافع كثيرا عن استمرار مركزها ولا يرضى بمساواتها مع غيرها من الأسر التي لا يستطيع أن ينكر مساواتها معها في الأصل، لكن المركز شيء والأصل شيء آخر.
- **محمد بن محم عاشور** : ابن عمه، ومن أخص تلاميذه وأوفرهم حظا من العلم والصلاح، فهو ولي من أولياء الله يروى عنه الكثير من الخوارق، والكشوفات، وهو المعروف ب (اباه) توفي رحمه الله سنة 1265 وهو مدفون في مكان بين تجكجة وشنقيط يعرف ب(آمجرجي)،، تزوج باثنتين من بناته وراثة من ذي النورين.
- **سيدي بن مولود** : ابن عمه، وابن أخته ديج بنت الحاج ابراهيم وهو عالم وولي من أولياء الله وكان أقرب الناس إليه وأحبهم لديه، فكان إذا تخلف عن الصلاة يأمره بنيابته في الصلاة، ويقال إنه يوم خروجه من تجكجة سأله الطالب بن حنكوش قائلا عسى أن لا تكون غضبت على قبيلتك؟ فأجابه على البديهة لو كنت غاضبا عليهم لما تركت لهم ابن أختي سيدي بن مولود، توفي رحمه الله في تجكجة سنة 1242.

- **السالك بن عمار** : وهو أيضا ابن عمه عمار بن الحاج محمد الذي هو أخو الحاج ابراهيم، وكانا كالشقيقين ولم يكونا كذلك لشدة حب كل منهما لأخيه، حجا معا وماتا في طريق العودة من تلك الحجة وهو عالم جليل، يقولون (هي الأسالكية أو مالكية) يروى عنه من العلم و الصلاح الكثير والكثير جدا.
- **الشيخ محمد الحافظ بن المختار** : كان من أبرز تلاميذه وأوفرهم حظا من العلم، وأكثرهم طموحا إلى معالي الأمور، وكان من أخلصهم وأكثرهم خدمة لشيخه، يقال إن الشيخ محل البحث سال يوما طلاب مدرسته قائلا أيكم يتقن قراءة الفاتحة، فلم يتقنها منهم مقرأ إلا الشيخ محمد الحافظ، ثم سألهم بما يهتمون أثناء الصلاة أو بمعنى آخر ما الذي يشغل أذهانهم أثناء الصلاة، فقال كل واحد منهم ماذا يشغل خاطره ولم يتكلم الشيخ محمد الحافظ، فقال له يا حافظ لم لم تتكلم فقال أنا لا أفكر في ذلك الوقت إلا في إتقان أركان الصلاة حسبما هو منصوص، فقال له أنت إمام المسجد ولما طمحت نفسه للعلم الباطن أشار إليه بيده قائلا مرادك هناك كأنه يشير له إلى الشيخ التجاني فذهب وعاد بالطريقة التجانية وهو إمامها في غرب افريقيا حتى الآن.
- **سيد ابراهيم بن الطالب محمد** : كان ذا حظ وفير من العلم والصلاح وكان من المعروفين بالزهد والورع وكان حمامة مسجد توفي رحمه الله في ضواحي تجكجة سنة 1242.
- **عبد القادر بن سيدي بن الحاج:** عالم جليل وولي صالح، كان من خيرة تلاميذه، وأجودهم قريحة، وكان من أهل الخوارق، وكان له تلامذة من الجن.
- **أحمد بن الطالب محمد** : عالم جليل من عباد الله الصالحين وهو أخو سابقه، وكانوا إخوة ثلاثة يعرفون بالعلم والفضل والصلاح توفي سنة 1236 هـ في تكانت.
- **سيد المختار بن الطالب محمد** : ثالث أخويه السابقين وكان ثلاثتهم علماء وصلحاء توفي سنة 1832م في ضاحية من تكانت.
- **سيد احمد بن الإمام بن الحاج ابراهيم** : ابن أخيه وكان من خيرة التلاميذ وهو عالم جليل، يعرف بالصلاح والورع.

وغيرهم كثير ممن لم أتمكن من تراجيمهم. وكلهم علماء وصلحاء.

<u>قبيلة إدو الحاج :</u>

- **عبد الله بن لمرابط سيدي محمود** : من أبرز خريجي مدرسته كان عالما جليلا، ووليا عارفا وزعيما سياسيا وقائدا عسكريا، سئل عنه الحامد بن امينوه فقال : كافر علماء وأولياء، ومعناه عنده أنه ولي قوي وعالم سني هو الذي تولى خلافة أبيه على رئاسة قبيلته وهي من أهم إن لم أقل أهم القبائل الموريتانية ولي كامل وشاعر مفلق يروى عنه الكثير والكثير جدا من الخوارق. من ذلك أنه كان ذات مرة حاجا، ولما هوى إلى الحجر الأسعد ليقبله رأى خيالا بينه وبين الحجر، فقال له من تكون فرد عليه أنا روح لم يبرز جسمه إلى الدنيا بعد ولكنني سأولد يوم كذا من شهر كذا في موضع كذا من أرض القبلة، وسيكون اسمي محمذن فال بن متالي، وأمي اسمها جليت بنت حيمده، وأهلي من قبيلة تندغ، فعاد هو وتوجه إلى أرض القبلة يبحث عن ذلك يسابق الزمن حتى لا يولد الطفل قبل وصوله إليهم فوصل بيومين قبل الوقت الذي حدد له ذلك الخيال ونزل عند أهل المسماة جليت، ولما سمع طلقها حال الولادة جاء إلى خيمتهم وجلس ينتظر المولود، وحال خروجه من بطن أمه أنشده الأبيات التالية :

لما برى الوجد قلبي وانضوى حالي	واشتد من كبر الهموم بلبالـــي
أنخت نضو همومي اشتكى حالـــي	إلى الولي التقي محمذن فالـــي
بالله عفر لوجه الله وجهك لـــــــي	جنح الدياجي لحاجي يابن متال
إن العليل إذا ما حـــام حومتكـم	يشفي سريعا بإذن الخالق العالي

وعاد أدراجه، فكان محمد فال بن متال غوثا لا مثيل له في وقته، وفي منطقته، وناهيك بعلم عبد الله بن لمرابط سيدي محمود وبصلاحه وولايته. توفي في القبة وهو مدفون عند ظهر شيخه.

- **الطالب أحمد بن اطوير الجنة** : وهو أحد الطوالب الأربعة السابق ذكرهم في محل من هذا الكتاب عالم جليل وولي كامل استمع إليه يحكي عن نفسه قال :

حكاية : وقع فيها كشف لشيخنا قدس الله روحه ونور ضريحه وهي أني كنت ذات مرة في صلاة الظهر في مسجد تجكجة وأنا في الصف الثاني والشيخ في المحراب وذلك في العام الأول عنده فالتفت وقال أتدري يا الطالب احمد ما مكث بن القاسم عند إمامنا مالك ؟ فقلت لا أدري ! فقال : مكث عنده اثنتين وعشرين سنة عشرون منها في العلم الظاهر، والسنتان في العلم الباطن فلما ذاق حلاوة العلم الباطن قال يا ليتني جعلت العشرين في العلم الباطن والسنتين في العلم الظاهر، فكان من أمر الله أني مكثت عنده اثنتين وعشرين سنة العشرين منها في الظاهر والسنتين في العلم الباطن مع أني كانت نيتي أن أمضي معه سنة واحة حتى قرأت عليه علومه كلها التي جاء بها من فاس، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات انتهى الاستشهاد. انظره في رحلة المنى والمنة للطالب احمد بن اطوير الجنة.

- **التقي بن اطوير الجنة** : وهو أخو سابقه، وهو ولي من أولياء الله، ومن كبار الزهاد، وكان لا يبرح شيخه في حياته ولا، حتى بعد مماته وهو الذي أشرف على بناء البيت على قبره وسبق الحديث عنه، يحكى عنه من الغرائب ما لا يحصى، منه قضية استقرار الحلال في معدته، وعدم استقرار ما فيه إشابة فيها وحتى أنه بعد مماة الوالد ظل مجاورا لضريحه وفي مرة من المرات جاءه غاصب من بني حسان يعرف بابن يم، فوجد عنده شياها، و لا حية هنالك غيره، فقال الغاصب لأحد قومه خذ تلك الشاة واذبحها، فقال له انتظر حتى أسأل الشيخ، فقال له ومن الشيخ هذا أتعني هذا القبر، قال نعم، فضحك ساخرا منه وقال اذهب واسأله، ففعل وجاء عائدا وقال إن شيخنا يقول أن من قتل هذه الشاة سيموت معها فضحك مرة أخرى ساخرا وقال سوف نرى، وأخذ الشاة و استل سكينه وذبحها، وبينما هو يقطع أوداجها بالسكين إذ انطلقت رصاصة من بندقية مطارد كان يطارده فكسر بها رأسه وخر ميتا قبل أن تنقطع روح الشاة، فجمع تقي الدين الناس وقال تعالوا نصلي على هذا (احوار الجنة) فقالوا كيف يكون وهو غاصب لأموال الناس، فقال لهم لو لم يكن من أهل الجنة لما مات هنا. توفي رحمه الله في القبة وهو مدفون مع شيخه.

وذات مرة من المرات قيض الله له أثناء مجاورته لقبر شيخه رجلا من بني حسان يقال له لمخيطير بن الصبار هو رئيس قبيلة اجنابجة من مشظوف، وصار يرسل له الهدايا تلو الهدايا وقد شاء الله أن يأتي لمخيطير هذا إلى مقبرة القبة زائرا، فصادف التقي بن اطوير الجنة فيها، فتصافحا بالسلام ولم يطلق لمخيطير يد التقي فقال له أطلق لي يدي فامتنع قائلا إلا إذا ضمنت لي أنك تأخذ بيدي يوم القيامة وتقودني إلى الجنة، فراوده مرارا أن يطلق له يده فأبى إلا إذا ضمن له ذلك، فقال له إذا أخذ سيدي عبد الله بيدي آخذ بيدك، فأطلقه.

وبعد مدة من الزمن أصدر لمخيطير إبله من أجمة[1] (كلته) إراط، وركب جمله المسوم، وفي الطريق ما راعه إلا شاب أبيض يرتدي ملابس بيضاء واقفا أمامه وحياه بالسلام وقال أردفني على جملك هذا فأناخ وأردفه، فسأل لمخيطير الشاب قائلا : أتظن أن احدا من بني حسان ينجو من النار، فرد عليه قائلا إلا إذا كان لمخيطير بن الصبار فقال له -وكاد يطير فرحا- كيف ذلك ؟ قال أخذ سيدي عبدو الله بيدي التقي بن اطوير الجنة وأخذ هذا بيد لمخيطير. فالتفت عليه يريده فلم يجد أحدا خلفه هذا ما نقلته ممن يوثق به[2] من أبناء سيدي عبد الله.

- **محمد محمود بن اطوير الجنة** : شقيق الاثنين قبله فثلاثتهم أبناء اطوير الجنة علماء وصلحاء وأولياء، ولا تكاد تفضل أحدهم على الآخر، تغمدهم الله برحمته وأسكنهم جنته.

قبيلة تجكانت :

- **سيد المختار بن سيد أحمد بن سيد الهادي** : عالم جليل وصالح كبير وشاعر معروف روى له صاحب الدر الخالد هذه الأبيات :

يا من يناضل ضوء الدين للبشر جاريت ويك جياد الخيل بالحمـر
أتعبت نفسك يا مسكين ما أحـد يصغى لقولك من سكان ذا الحجر

---

1. الأجمة تقال للاضاءة التي يتجمع فيها الماء إذا كانت مجرى ماء جبلي. الكلته بالدارجة.
2. محمد محمود بن محمد الحسن وغيره.

لو كان حلل شرب الخمر سيدنا حاشاه لحل لأهل البدو والحضـــر

- **ألمين بن سيد أحمد بن سيد الهادي** : أخو سابقة وهو عالم وصالح
- **سيد أحمد بن باب بن أحمد**
- **لحبيب بن محمد بن الحاج**
- **السالك بن احمد مولود**
- **سيد احمد بن لحبيب**
- **المختار بن الطالب اعبيدي**
- **سيدي مولود بن محمد بن الشيخ**
- **عمر بن أحمد مولود**
- **لحبيب بن محمد**
- **الطالب أحمد بن أحمد**
- **سيد أحمد بن لحبيب بن المختار**
- **أحمد بن المختار** و هو والد الطالب عبد الله صاحب رسم القرآن المعروف بالمحتوي الجامع

وغيرهم كثير لكني لم أتمكن من بقيتهم.

<u>قبيلة مسومة :</u>

- **سيدي محمد بن محمد بن الحبيب**
- **سيد المصطف بن عبد الرحمن** وغيرهم

<u>قبيلة لقلال</u> :

- **سيد أحمد بن سيد ألمين**
- **سيد أحمد بن عبد الرحمن بن الطالب سيد أحمد**

وآخرون لم أتمكن من أسمائهم وتراجمهم

<u>قبيلة أولاد الناصر</u> :

- **صالح بن عبد الوهاب**[1] : وهو من خيرة خريجي مدرسته عالم جليل، وزعيم عظيم في قبيلته وفي منطقته له الحسوة البيسانية، وغيرها من التآليف المفيدة وكان علما من أعلام البلد توفي 1855م وهو شاعر من شعره يعرف بنفسه ويفخر بنسبه :

فإن تسألوا عني سؤال تجاهـــل   أنا ابن أمير الركب من آل ناصر

قد انتسبوا من جعفر لابن زينب   كما صحح الأعلام أهل الدفاتــــر

وشهرته تغني عن التطويل في أخباره فقد قدمت عنه أطروحات متعددة.

قبيلة تاكاط :

- **سيدي بن عبد الرحمن**
- **اعمر بيان بن**
- **محمود بن الطالب أحمد بن اعمركين**

قبيلة تركز :

- **عبد الرحمن بن اعبيدي**

قبيلة إديبسات :

- **ابراهيم بن الطالب بي**
- **محمد بن الطالب ابراهيم**

الشرفاء :

- **اشريف أحمد الولي** : وله روايات تشبه قضية حي بن يقظان لابن طفيل.
- **امبال بن اشريف** التيشيتي
- **سيد أحمد بن الكيحل** التيشيتي
- **سيد بن عبد الوهاب** القلقمي

---

[1]- صالح بن عبد الوهاب حياته وآثاره، الحاج بن محمد، عدد 72 عام 1985.

قبيلة أولاد داوود :

- **سيد محمد بن اعل بن المختار العلوشي المعروف باقلل لقلال واعلش علوش،** ويمتاز بالذكاء وقوة الاستيعاب وكثرة التحصيل قال عنه شيخه امتضي العلوشي، وقال لو كان العلم يثير النقع لإثارة في أثر العلوشي، وقال :

وكلما أفتى به العلوشـــــــــــي فهو في الحجر كالمنقوشي

توفي رحمه الله تعالى سنة 1263 هـــ.

قبيلة إجمان :

- **أحمذ بن الطالب ابراهيم**
- **لحبيب بن الطالب ابراهيم** أخو سابقه

أهل اسويد :

- **محمد بن عال بن المعلوم بن تالول**

السودان :

- **الطاهر بن اخيار أنتاج.**

أولاد بله :

- **أحمد بن محمد البلالي.**

لمحاجيب :

- **بوب بن أحمد مولود** المحجوبي.

لحريزات :

- **محمد بن لبات.**

أولاد ديمان :

- **محمذن بن سيدي** الديماني بإعجام الدال

<u>أولاد ادليم :</u>

- **سيدي بن النفاع**
- **لمخيتير بن حم بن برك**

<u>الصناع :</u>

- **محمد بن أحمد جد والصانع**
- **عبد الله بن اعليوه**

ولا يسعني إلا أن أعتذر عن عدم تمكني من الإحاطة بهم، والخوض في تراجمهم لقلة المراجع، واعتماد الناس ممن سبقونا على الذاكرة، وبمرت الحفاظ يموت ما حفظوا معهم. وأسأل الله تعالى أن ينفعني ببركاتهم كما نفع الكثيرين بعلومهم ومعارفهم. والله تعالى أعلم.

<u>أسرته الخاصة</u>

تطلق الأسرة على مجموعة من الناس ترتبط حياتها بالشخص الذي يعيلها من زوجات وأبناء وبنات وموالي وإخوة صغار، وغيرهم. وهذا هو مفهومها الضيق.
أما مفهومها الأوسع من ذلك فإنه يضم الأعمام والأخوال وأبناء العم، وما إليهم ممن ينضوي في نطاق الأسرة الكبيرة.
ولصاحبنا في كلا المفهومين حظه، ولكننا هنا نتكلم عن أسرته الضيقة : زوجاته، وأبناؤه، وبناته فقط.

<u>أولا : زوجاته :</u>

أ. **فاطمة بنت آب بليل بن كباد العلوية**، ولم تكن له زوج علوية غيرها رزقه الله منها بابنه محمد ابنه الأكبر وقد توفيت عند ولادتها به عكسا لما كتبه بعض من كتبوا عنه أنه طلقها، وهذا غلط أردت تصحيحه من ضمن تلك الأغلاط التي سبق تصحيحها.

ب. **رقيه بنت لمرابط سيدي محمود** : رزقه الله منها بولديه العلمين محمد محمود وسيدي محمد، وتقدم الكلام على أبنائه الثلاثة في تصحيح الغلط الثاني، وتوفيت هي الأخرى سنة 1197 أي بعد رجوعه من الرحلة بسبع سنوات.

ج. **تزوج بسيدة شريفة** : لم تلبث عنده إلا قليلا ولم يرزق منها بولد، وسبقت الإشارة إليها في تصحيح الغلط الثاني.

د. **خديج بنت اتشفاغا** : الحاجية وهي أم أولاده محمد أحمد، محمد الأمين، محمد المختار، ومحمد أحيد عاشوا أربعتهم وخلفوا، وله منها ثلاثة لم يخلفوا هم احمد محمد، ومحمد الجيلاني، محمد عالي وله منها بناته وهن: أمهات أسر مختلفة لذكرهن فيما يلي بعد.

هـ. **خديج بنت أحمد طاهر** : هي آخر زوجاته، توفي عندها.

<u>**ثانيا : بناته**</u>

1. **صفية** : أم أبناء تلميذه وابن عمه محمد بن محم عاشور وتوفيت عن ابنها منه الولي الصالح ابراهام وهو رضيع وكان جده سيدي عبد الله يرضعه باصبعه مدة الحولين الكاملين حتى أكملهما وبلغ سن الفطام.
2. **فاطمة** : الملقبة الدي أم بقية أبناء محمد بن محم عاشور المذكور، وهي أم محمد بن السالك بن عمار بن الحاج محمد العلوي.
3. **سكينة** : أم أبناء باب بن جد بن أحمد العلوي وهو غني عن التعريف لأنه علم من أعلام العلويين كالشمس في رابعة النهار.
4. **آمنة** : أم أبناء الإمام أحمد بن الإمام بن الحاج ابراهيم وهو ابن أخيه.
5. **القريشية** : أم أبناء خيري بن الطالب محمد لقلال.
6. **رقية** : أم أبناء لحبيب بن الحاج بن اطويلب العلوي.
7. **أم كلثوم** : أم أبناء أهل الجيلاني بن عبد الله وأهل الشيخ إدوعلي.
8. **نفيسة** : ولم تعقب تزوج بها الشيخ محمد الحافظ وماتت عنده قبل أن تبلغ سن الإطاقة.

ولكل واحدة من بناته مناقب وفضائل لا يسعها المقام إلا أنهن كلهن فاضلة وكلهن أنجبت أفاضل.

أما أبناؤه الذكور فعشرة بلغ منهم سبعة وخلفوا جميعهم، وبقي ثلاثة توفوا صغارا لم يخلفوا وسنتعرض لذكر كل واحد منهم باسمه وعينه فيما يلي.

أبناؤه الذكور :

- **محمد** : ابنه الأكبر وحيد من أمه فاطمة بنت آب بليل بن كباد العلوية وليس له ولد من علوية غيره عالم جليل وعابد ورع وزاهد متقشف يخشى الله ويتقيه ويحب العزلة، والانصراف إلى العبادة، له تآليف لم أعثر منها إلا على كتابه في التوحيد. الذي احتفظ به أحد أبنائه، ولم أحصل عليه منه توفي 1236هـ (1821م).
- **محمد محمود** : ابنه الثاني من رقي بنت لمرابط سيدي محمود الحاجية زوجته الثانية، وهو عالم جليل وعبقري فذ وشاعر مفلق له كتاب الدر الخالد في مناقب الوالد، وله مكفر بني حسان وله أنظام وأشعار منها مرثيته التي رثى بها والده وسنطلع عليها ضمن المراثي من هذا الكتاب، لكنه لم يعش بعد والده إلا سنتين ثم توفي عن عمر يناهز الثلاثين عاما سنة 1235 هـ (1821م) تغمده الله برحماته وأسكنه فسيح جناته.
- **سيدي محمد بن سيدي عبد الله** : شقيق سابقه من رقي بنت لمرابط سيدي محمود الحاجية وهو عالم جليل وشاعر مفلق له مؤلفات منها سواطع الجمان، وشرحه نجم الحيران في الأفعال، ومجدد العوافي في رسمي العروض والقوافي، في العروض، وله أنظام وأشعار ولد سنة 1197هـ (1783م) وتوفي سنة 1251هـ(1836م).
- **محمد أحمد بن سيدي عبد الله** : ولي كامل، من أهل الخوارق وله ينسب الكثير من مناقب الصالحين من زوجه الرابعة خديج بنت اتشفاغ الحاجية وهي ابنة أخت سابقتها وهي سيدة فاضلة ينسب إليها الكثير من الكرامات

وهي أم بقية أبنائه توفيت في تججك وقبرها مزار محرب لقضاء الله الحوائج لزائريه. فلا تخلو جمعة من زوار يزورون قبرها.

- **محمد الأمين بن سيدي عبد الله** : شقيق سابقه منها أيضا، وهو عالم جليل يلقبونه بقاضي الحجر والمدر، يمتاز بمميزات لم تتوافر لغيره لا من إخوته ولا من غيرهم يقولون أنه أحسن أهل زمانه صورة فهو يؤسفني زمانه، وأنه أعلم أهل زمانه، وأنه أحسن أهل زمانه خلقا، وأنه أكرم أهل زمانه ويرون عنه روايات مذهلة من الكرم والورع والتواضع وحسن الخلق، يقولون أن إدوعل لم يتفقوا طوال تاريخهم إلا على ثلاثة من أبنائهم مدة أعمارهم لم يختلف اثنان على واحد من ثلاثتهم وهم :

أيام كانوا في شنقيط اتفقوا على الشيخ سيد أحمد بن الوافي[1] وعلى هذا استقامت دولتهم مدة ثمانين سنة مدة حياته.

عمـار بـن الحاج محمد بن الإمام عبد الرحمن الذي اتفقوا على رئاسته عليهم مدة حياته، ولم يختلف عليه اثنان منهم.

محمـد الأمين : هذا بن سيدي عبد الله الذي أسموه قاضي الحجر والمـدر واستمر في القضاء مدة حياته لم يختلف عليه اثنان وتوفي رحمه الله سنة 1299هـ(1882م).

- **محمد المختار بن سيدي عبد الله** الملقب رجل الدنيا والآخرة كان عالما جليلا، وتقيا ورعا كريما، لم أعثر له على تأليف إلا أنه كثيرا الأنظام والتوسلات بأنظام غاية في حسن النظم والسبك، ويمتاز بالولاية الظاهرة والكشف والخوارق، والإنفاق في سبيل الله فقد بسط الله عليه الرزق، ووفقه في الإنفاق منه، رزقه الله إلى جانب ذلك حياء نادرا فلا يظهر وجهه للناس ولذلك يسمونه (قنبور) لأنه دائم التغطية لوجهه عن الناس. توفي رحمه الله سنة 1298 هـ (1881م).

- **محمد أحيد بن سيدي عبد الله** : وهو الأخير من أبنائه توفي عنه وهو ابن ست سنوات وكان يقول لإخوته اختارني ربي عنكم حيث أوجب عليكم

---

[1]- صحيح النقل.

البرور، وأمات والدي وأنا صغير، وأوجب عليكم الصوم وأنا مريض مرضا مانعا من الصوم، وأوجب عليكم الزكاة وأنا فقير لا مال لي، وأوجب عليكم حقوق معلميكم وأنا علمني ربي بلا واسطة بل من لدنه تعالى. وهو ولي من أولياء الله كثيرا ما تظهر على يديه كرامات الأولياء، ومن أظهرها ما وهبه الله من العلم دون أن يتعلم على أحد فقد نظم الباب من مختصر خليل نظما رائعا يدل على تمكنه من الفقه المالكي يقول في أوله :

ينعقد البيع بما يـــــدل   على الرضى و أن تعاطي الكل

وله نظم في التوحيد يدل على عمق معرفته لفن التوحيد يقول فيه :

وقوتي علمي بعدمها جري   والحول لا إلا إذا منك يـــرى

ومن إلى قربه كان قـــرب   علمت أن النصر منك قد قـــرب

وله أنظام في التوسل حسنة النظم والسبك الشيء الذي يدل على تمكنه من اللغة وآدابها وبلاغتها وقواعدها وأوزانها.

هؤلاء الأربعة من أم واحدة هي خديج بنت اتشفاغا وله منها ثلاثة لم يعقبوا هم: أحمد محمد، محمد الجيلاني ومحمد عال، أما الأربعة هؤلاء فلكل واحد منهم عقب والحمد لله.

أما بناته الإناث فقد سبق الكلام عنهن وأرجو الله تعالى أن ينفعنا ببركاته وبركاتهم وبركاتهن فقد سئل الشيخ الطالب بن حنكوش عن أي أبنائه أفضل، فقال للسائل أغمس يدك في العسل والعق أصابعك فإذا احلولى أحدها على الآخر فسأخبرك بأيهم أفضل فهم تماما كأصابع العسل.

آثاره العلمية

الكتابة

يعتبر القلم أحد اللسانين، لكنه أبقاهما أثرا إذ الإنسان بواسطته يعبر عما في نفسه وبواسطته يخلد آثاره فيفيد بها الأجيال المتلاحقة في زمنه، وفي الأزمنة الآتية بعده، وبتخليده لها يكون خلوده، وبنفعه بها ينتفع بعد موته، وتشمل الكتابة المنظوم، والمنثور، كالشعر، والتأليف، والقصة، والمسرحية والرواية، وغير ذلك.
ولا شك أن صاحبنا من أوائل المؤلفين الذين تركوا بصماتهم على جبين هذا الوطن بارزة بما تركوه من التآليف النافعة فهو -وإن لم ينأ بنفسه عن دوره السياسي والاجتماعي في بلده- فإنه إلى جانب ضخامة مدرسته وكثرة روادها وتنوع المواد المدروسة فيها قلما تمر سنة دون أن يؤلف فيها كتابا أو اثنين، اللهم إلا ما كان من سنوات تأليفه لمراقي السعود وشرحه نشر البنود الذي استغرق تأليفه ست سنوات على ما تبينه تواريخ بداية شروعه في النظم، ونهاية كتابته للنثر[1] أما الكتب الأخرى فيؤلفها تباعا كما في فيض الفتاح على نور الصباح[2] وروضة النسرين في الصلاة على سيد المرسلين، وغير ذلك من تآليفه، وإذا كانت الكتابة تستمد جودتها من حسن سردها، وسلاسة أسلوبها، وحبك تراكيب جملها، وبلاغة تعابيرها، وعمق أفكارها وصحة عزوها وأسانيدها، فإن الرجل بلغ في احتواء عناصرها حد الكمال، وذلك ما تلمسه عندما تتصفح تآليفه وتقف على أساليبه، وعباراته، وسبره أغوار المعاني التي يتكلم عنها، حتى أنه ليمكنك القول بأنه هو واضع أصولها في هذا البلد عندما تقف على كتابه فيض الفتاح على نور الأقاح الذي خصصه لعلوم البلاغة : المعاني، والبيان والبديع والذي يقول فيه :

نظمت فيه الدر في سلك منيع   من المعاني والبيان والبديع

ولسعة اطلاعه تراه كثير العزو بعيدا عن الذاتية وعن التقوقع حول نفسه كما هي الحال بالنسبة للكثيرين من الكتاب ممن يفضلون إيهام القارئ بأنما يكتبونه من عند

1- هدية الصمد في مناقب الحد (إسلم بن محمد أحيد).
2- المرجع نفسه.

أنفسهم، ولكن الرجل يعترف بالملكية الثقافية لأصحابها الأوائل، فيعيدها إليهم ويسندها لهم. تورعا واعترافا بفضل السبق لأهله، وهذا ما نلمسه في جميع تآليفه، فلا تكاد تجد منها من يخلو من العزو في كل ما تكلم فيه، فالرجل موسوعة متحركة، تشعر وأنت تتصفح آثاره وكأنك في مكتبة أو في حلقة من العلماء يتحدث كل واحد منهم عن نفسه، وهذه إحدى خواصه التي تمتاز بها كتاباته، إذا تكلم عن حكم فقهي يسرد لك ما يظهر له فيه ثم يقول بعد ذلك قلت أو قال وإذا تكلم في الأصول تراه يرجع القواعد الأصولية إلى واضعيها الأوائل، ويزاوج بين آرائهم وما أوصله إليه اطلاعه الواسع يقول في نهاية كتابه المراقي :

أنهيت ما جمعه اجتهادي وضربي الأغوار مع الأنجاد

مما أفادنيه درس البرره وما انطوت عليه كتب المهرة

وهكذا أسلوبه في البحث والتحليل والحكم والتعليل، فقد ألف – ولأول مرة – حسبما يظهر :

التعليق على التكميل للمنهج على القواعد وهو موجود بخطه كما ذكره الشيخ إسلم بن محمد احيد في هدية الصمد، ألفه في مراكش قبل عودته إلى وطنه ثم شرع مباشرة بعد عودته إلى وطنه في الكتابة فكانت إحدى أولوياته التي بدأ بها مشواره، فأمد المكتبة الوطنية بمراجع لم تكن موجودة فيها قبله، ولا كانت مواضعها مدروسة في القطر قبله، وذلك ما تحدثنا عنه في هذا الكتاب غير ما مرة.

وقد سبق أن بينا أنه وصل إلى تجكجة عائدا من رحلته أواخر جمادى الأخرى عام 1190هـ وفي شهر جمادى الأولى عام 1191 هـ شرع في تأليف كتابه نور الأقاح في علم المعاني موافقا عـــام (1777م) وذلك في مدينة تجكجة حرسها الله.

الشيء الذي يدل على أنه أول تأليف له بعد عودته، أي في العام الموالي لها، وقد شرع في شرحه فيض الفتاح في شهر رجب من عام 1192 هـ موافق 1778م، وهو كتاب جليل يقول في أوله :

يقول عبد الله و هو العلـــوي راجي شفاعة الجناب المولوي

الحمد لله الذي قد كشفـــــا بطالع البيان عن ما انكشـفا

وأستعين الله في نيل النجـــاح   في رجز سميته نور الأقـــاح

نظمت فيه الدر في سلك منيـــع   من المعاني والبيان و البديع

على طريق لاحب و جامـــع   للحشو والتقييد دأبا مانـــع

إذ عندها يظهر سر القـــرآن   ويكمل الدين و يبدو البرهان

هذه المقدمة براعة استهلال يطل من عليها القارئ على مضمون الكتاب وما يقصد به صاحبه، وقد أجاد فيه وأفاد وكان الأول من نوعه في القطر الشنقيطي (موريتانيا) فلم يظهر تأليف في علم المعاني قبله بهذا الحجم وبهذا التفصيل، وقد أحدث نقلة نوعية في مجال علم المعاني على مستوى المحاظر الموريتانية فكانت علوم البلاغة قبله مجهولة (المعاني، البيان، والبديع) ولم تبق بعده فائدة في هذا الميدان يطلبها طالب علم في هذا الفن الذي كانت البلاد قفرا منه وهو في مجلدين اثنين ج1 و ج2.

بدأ فيه الكلام عن البسملة وهل هي إنشائية أم خبرية، وتناول بعد ذلك الجمل العربية فقسمها إلى مطلقة ومقيدة، وشفى الغليل في التحليل والتعليل، والإجمال والتفصيل. وتكلم على علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع، وجعل ثلاثتهم هي الفصاحة فقال :

يوصف بالفصاحة القول ومن   انشاله فبالفصاحة قمـــن

كما عرف البلاغة بقوله :

وبالبلاغ عرف الكلامـــــا   و من تكلم فلن يلامــــا

كما بين أصل تسميتها بالبلاغة بأنها من البلوغ، والانتهاء إلى المعاني اللفظية المراد التعبير عنها، في سياق الكلام.

وبعد تعريفه للبلاغة، بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال جعل لها طرفان أعلى وأسفل فقال :

طرفها الأعلى هو القـــرآن   قد عجزت عن حده عدنـــان

والطرف الأعلى الحديث يقرب   منه له الإعجاز بعض ينسب

وقد أسهب في التفصيل في أطراف البلاغة، وبين أن لها طرفان أعلى وأسفل، وساق الأمثلة الكافية في ذلك.

ثـم حـدث عن علم البيان وحدد موضوعه، وجملة إنشائية وخبرية، وبين دلالاته وعرفه بأنه قواعد معلومة بالإدراك والملكة فقال([1])

علم البيان هو ما به عرف   أن يورد المعنى بطرق تختلف

وفـي نطـاق تعريفه بعلم البيان أكد صلته بعلم المعاني وترابط أجزائها وصلة كل منهما بالآخر صلة الجزء بالكل، وهي دلالة المطابقة ما بين اللفظ ومعناه، وضعيا كان أو عقليا فقال :

واللفظ إن دل على ما وضعا   له فللوضع نماها من وعى

وإن على جزء ولازم خرج   فسمين عقلية دون حرج

وبعد تقسيمه للدلالات اللفظية وصلتها بما وضعـت له في كل لقب من الألقاب المستعملة في علم البيان أسهب في البحث حتى خلص إلى التفصيل والتحديد، فذكر التشبيه، وقسمة إلى أنواعه وبين أدواته، وأنواعه وأصوله اللغوية فقال :

دلالة على اشتراك الأمر   للأمر في معنى بكاف الجر

وفـي بحـثه لهذه المواضيع تطرق إلى أقوال علماء البيان كالسكاكي والقزويني، وغيرهما، وفرق بين التشبيه والاستعارة، والكناية وما إلى ذلك، وبين أركان التشبيه الأربعة : إداة التشبيه، وطرفاه ووجهه. موضحا ذلك بالأمثلة الشعرية والنثرية، ثم تحـدث عـن أنواعه كالتشبيه المركب، والتشبيه المتعدد، ووجوهه المتعددة حسية كانت أو عقلية، وميز بينهما قوة وضعفا فقال :

أقواه ما أداته وما جمع   قد حذفا أو مع أصل يتبع

وبين أعلى مراتبه تبيينا مفصلا لتلك المراتب وذلك في قوله :

فما به الحذف لواحد خذا   وما عدا خال فراع المآخذا

وهكذا أطال البحث في البيان كما فعل في سابقه، ما سيعمله في لاحقه.

---

[1]- قبض الفتاح على نور الأقاح لسيدي عبد الله نفسه، ج 2.

علم البديع :

وقد بين أصله اللغوي حتى توصل إلى تعريفه كما فعل في سابقيه، مجملا، ومفصلا، ومبينا ذلك بقوله[1] :

علم به يعرف تحسين الكلام   بعد البلاغة يجيء ذا انقسام

فمنه معنوي و منه لفظي   وقدموا البحث في غير اللفظي

في هذين البيتين قسم البديع إلى قسمين معنوي ولفظي، وقدم المعنوي على اللفظي خلافا لما جرت به العادة عندهم من تقديم اللفظي على المعنوي، لكنه قسم اللفظي إلى تطابق، وتباين وقسم الباطني إلى أنواعه الأخرى كالمشاكلة، والمزاوجة، والعكسي والاكتفاء، والتنكيت والتأسيس إلى غير ذلك. ثم وصل إلى السجع، وعرفه بقوله :

والسجع قل تواطؤ الفاصلتين   نثر على حذف أخيرا يستبين

وهذا ما صرح به السكاكي في قوله (الاسجاع في النثر كالقوافي في الشعر) وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام: متطرف، ومتوازن، وتصريح والسجع عبارة عن كلام مقفى تماما كتقفيف الشعر إلا أنه بلا تفعيلة معتبرة كما في النظام الخليلي قال :

فالشاعران حين ما يتفقا   في غرض عم فكل ينتقى

وتطرق في بحثه في هذا الغرض إلى مصطلحاته المتعددة فأفاد فيه وأجاد، فجازاه الله تعالى خير الجزاء.

ومن آثاره :

كتاب نيل النجاح على غرة الصباح الذي يقول فيه :

يقول عبد الله ذو التتام   من بعد ابراهيم بالإمام

العلوي نسبا و الوطن   تجحك من كل المخوف تؤمن

الحمد لله الذي أتاحا   فوزا لمن إلى الحديث ارتاحا

اهتم فيه بالتعريف بشرطي البخاري ومسلم في صحة العزو والإسناد، وأوضح الصحيح، والحسن، والموضوع الموقوف والمرفوع، وهي مواضيع لم يتطرق إليها

[1]- فيض الفتاح على نور الأقاح.

بن حجر العسقلاني في فتح الباري على صحيح البخاري، وبين الفرق بين الطالب والمحـدث والشـيخ والإمام والحافظ والحجة والحاكم والراوي وكذلك أوضح عدد أحـاديث الموطـأ، وعدد محفوظات بعض الحفاظ إلى غير ذلك من محتويات الفن وأنواعه.

وكتابه رشد الغافل الذي يقول فيه :

الحمد لله الذي هدانــا   للحق و الباطل قد أبانــا

لما نهانا عنه خير مكــرم   صل عليه ربنا و سلـــم

وهو بالكره وبالمنع جرى   منه علوم الشر كلها ترى

ما فيه إيصال بلا أو نفـع   لغير مستحقه في الشــرع

وهو كتاب يتكلم عن السحر والطلاسم، وكلما يتوصل به لضر أو نفع لمن لا يجوز إيصـاله له، ويقـول بالحرف الواحد أعلم أن كل اسم من أسماء الله تعالى له سر خاص به في هذا الكون، فمنها ما ينزل به المطر، ومنها ما تسكن به الرياح، ومنها مـا يسـكن به البحر ومنها ما يسار به على الماء، ومنها ما يطار به في الهواء، ومـنها ما يبرأ به الأكمه والأبرص، فكل اسم من أسماء الله تعالى فعال في الكون ومؤثر فيه لما يناسب معناه، فقولهم اسم الله منك بمنزلة كن منه تعالى.

ولهـذا قال بتحريم استخدام أسمائه تعالى للتأثير في الكون وخاصة إذا ما أريد بها إيصال نفع أو ضر لغير مستحقه شرعا. أفاد في هذا الكتاب وأجاد. تكلم عن السحر وأنواعه، ومظاهره كالهيميا والسيميا، والكيميا والحظ (لكزانه) والفال وعلى الكتب و غيرذلك، وقال بكفر السحرة وأباح قتلهم، وبين جميع أنواع استخداماتهم.

وتكلم فيه عن الفرق بين علوم السر بالمهملة وعلوم الشر بالمعجمة وعن الصوفية وأذكـارهم، وأقوالهـم وحـلقاتهم، وأحوال جذبهم، وأباح ذلك كله، بل رغب فيه، فليرجع إليه من يريد شفاء الغليل في ذلك الميدان.

وكتابه طلعة الأنوار الذي يقول فيه :

الحمد لله هو المعيـــن   إياه نعبد ونستعيـــــن

أحمده لما لدى نعمـــه   ربت وبان فضله و حكمــه

معترفا له بالاختصاص   و ما حوته سورة الإخلاص

تكلم فيه على مصطلح الحديث ولم يترك شاردة ولا واردة إلا بينها وأرسى قواعدها وأوضح معناها وأثبت مبناها، وشفى الغليل في شرحه لهذا الكتاب الذي أسماه هدى الأبرار.

وكتابه مبصر من به عمى يقول فيه :

يقول عبد الله نجل برهـــام	بن الإمام العلوي بن الإمام
الحمد لله الـــــذي أزالا	بدع أهل الكفر و الضلالا
ثم الصلاة والسلام أبـــــدا	على إمام المرسلين أحمدا
والآل والصحب المقيمي الأود	ومن به إلى صراطه هدى
وبعد ذا الدعاء ودا الثـــناء	ما بال أهل اللحن و الغناء
فالذكر والقرآن ذو الكمـــال	والرقص في أواخر الليالي
لكن إذا قرأت كي تـــنيلا	من ربنا جزاءه الجزيـــلا
فاقرأ بواحد من السبعـــة أو	باثنين أو أكثر في الذي رووا
و كل حرف جيء به جميلا	من مخرج و رتلن ترتيلا

ومن آثاره التي غطت شهرتها القطر كله كتابه مراقي السعود الذي لم يظهـــر له مـــثيل في علم الأصول، ويعتبر أهم مرجع في هذا العلم ليس في هذا القطر وحده وإنما في الكثير من الأقطار العربية الإسلامية، وقد بدأه بتجكجة سنة 1207 وانتهى في تأليفه في البادية سنة 1214 ابتدأه بقوله :

يقول عبد الله وهو ارتسمـــا	سما له والعلوي المنتمـــى
الحمد لله الذي أفاضـــا	من الجدي البر دهورا غاضا
وجعل الفروع والأصـــولا	لمن يروم نيلها محصـــولا
وشاد ذا الدين بمن ساد الورى	فهو المجلى والورى إلى ورا
محمد منور القلـــوب	وكاشف الكرب لدى الكروب
صلى عليه ربنا وسلمـــا	وآله ومن لشرعه انتمـــى

فـــي هذه المقدمة ابتدأ بحمد الله فكل أمر لم يبدأ فيه باسم الله وفي رواية بحمد الله فهو أبتر، والحمد هو الثناء بالجميل على الجليل تبارك وتعالى، ويذهب بعضهم إلى صلته بالاسم الأعظم صلة عكسية طردية كما يتجلي ذلك في اشتقاق اسمه صلى الله

عليه وسلم من الحمد فألحق محمود والعبد حامد محمد، ولهذا ابتدأ نظمه بالحمد كما ترى، أما تعريفه لنفسه في البيت الأول فلا يعتبر بداية للنظم، ثم جعل البيت الثاني براعة استهلال للفن الذي هو قادم على الكلام فيه فن الأصول الذي يعتبر أمامه في هـــذا القطر وهو علم أصول الفقه في الدين الذي اختاره الله لخلقه وختم به الأديان السماوية، وأشاده بسيد الأولين والآخرين وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله الدين الأوحـــد للبشر فقال (ورضيت لكم الإسلام دينا)، وقال (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه)، وأشاده بمحمد صلى الله عليه وسلم (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله). ولهذا قدم الكتاب ببراعة استهلال ضاربة في أعماق موضوعه المبتدئ باسم الله، وهي إطلالة على المرامي التي يرمي الكتاب إلى البحث فيها.

وهكـــذا هو كلما أراد أن يؤلف كتابا يبدأ ببراعة استهلال يفهم منها القارئ – لأول وهـــلة- مـــاذا يرمي إليه ذلك الكتاب، و إذا ما انتهى من تأليفه تراه يشير ببراعة اختتام تنبئ القارئ بأن الكتاب أوشك على نهايته كقوله.

أنهيت ما جمعه اجتهادي وضربي الأغوار مع الأنجاد

مما أفادنيه درس البرره وما انطوت عليه كتب المهره

فجـــزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وقد ترك لنا إلى جانب تلك الكتب الكـــثير والكـــثير جـــدا مـــن النوازل والفتاوى، والرسائل ذات الأهمية في جميع المجـــالات فـــي الأحكام في الأنساب، في الفتاوى في جل القضايا المعاشة التي لم تتناولها أمهات الكتب.

كـــتحرير المقالة، في تحريم ونكاله، والجادة المطروقة في تطليق الزوج المحلوقة، وطيب المرعى في حقيقة الاسترعاء، القراءة بالجيم الشديدة، والجيم المتفشية وغير هذا كثير وله إلى جانب ذلك خطب كثيرة ومؤثرة في الجمع والأعياد تتناول بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر لإتمام الفائدة.

الخطب لسيدي عبد الله

خطبة الجمعة الأولى : لسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم

الحمد لله الواحد الأحد المبدئ المعيد، المنفرد بالعظمة والتمجيد، الحكيم العليم الفعال لمـــا يريد، المحتجب عن العيون وهو أقرب من حبل الوريد، نحمده ونشكره وهو الذي تكفل لمن شكر بالمزيد، فقال (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذاب لشديد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إخلاص وتوحيد، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير الشهيد، أرسله والناس يعبدون ما لا يضر ولا ينفع ولا يغني ولا يفيد، وأنزل على قلبه القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبعثه إلى الأحمر والأسود والقريب والبعيد، فبشر بالوعد وحذر من الوعيد، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار، وصـــحابته الأخيار، صلاة موصولة بالمزيد وسلم سلاما لا ينقطع أبدا ولا يبيد. يا أيهـــا الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد، إن يشأ يذهبكم ويات بخلق جديد. حافظوا على التوبة وأوفوا بالعهود، فمالنا نتوب من الذنب ثم نعود، والنفس عـــلى كـــل واحـــد منا محسوب ومعدود، وما رحل عنا من الأيام لا يعود، إلا إن المصـــر لفـــي ضلال بعيد، نحب الدنيا وهي بشركها تطلب منا تصيد، ونبيع فيها الجوهـــر الباقي بالغرض الفاني وهو مع ذلك غير منقود، ونرتكب في هذه الصفقة الغـــرر وبيع الغرر مردود أأيقاظ نحن عباد الله أم رقود، بينما المرء قد غلب عليه حـــبها وظن أنها لا تبيد إذ جاءه الأمر الشديد، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد، فغيب بين أطباق الثرى واللحود، وصار طعاما للهوام والدود، فهو غـــريب وحيـــد فريد، في محل لا يجد فيه إلا ما قدم من العمل الصالح المفيد، ثم يـــبعث للوقوف بين يدي واجب الوجود يوم ينفخ في الصور ذلك يوم الوعيد، يوم تشهد الألسن والأيدي والأرجل والجلود، يوم يقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل من مزيد، يستغيث أهلها فلا يغاثون. ويسترحمون فلا يرحمون، ينادون يا مالك قد أثقلنا الحديـــد، يـــا مالك قد تمزقت الجلود، يا مالك أخرجنا فإنا لا نعود، فيجيبهم هيهات

هيهـات قد حق الوعيد، عصمني الله وإياكم من العذاب الأليم، وحشرني وإياكم في جناب النعيم مع من قال فيهم جل وعلا لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد. هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين.

خطبة الجمعة الثانية لسيد عبد الله بن الحاج ابراهيم :

الحمـد لله الـذي خص بالفضائل أوقاتا وأزمانا، وحض فيها على الطاعات تكفيرا للذنوب وغفـرانا نحمده ونشكره على ما أسدى إلينا من نعمه وأولانا، ونستعينه ونسـتغفره ممـا ارتكبناه من المخالفات ظلما وعدوانا، ونبرأ من الحول والقوة إليه إسـرارا و إعلانـا، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا التي أفسدت عليـنا ديـننا ودنيانا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نجدها في وحشـة القـبر تلقانا، ونشهد أن سيدنا محمدا عبد ورسوله الذي جاء بالصدق حجة وبرهانا صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين بينوا لنا الطريق تبيانا. أيها الناس اعتصموا بحبل الله فإنه أقوم وأقوى وكفوا عن المعاصي فإن جلودكم على النار لا تقـوى إلى مـتى نفعل المعاصي والآثام ونستخف بإطلاع الملك العلام، ونهمل ما تكتـبه الحفظة وتسطره الأقلام، ونتكل على طول الحياة ولعل الباقي منها أيام، أما آن لـنا أن نعلم أن الدنيا أضغاث أحلام، وان الناس فيها نيام، فإذا ماتوا انتبهوا من المـنام، كم فينا من أعد لنفسه قوت عامه، وهو راحل إلى قبره قبل تمامه، كم فينا مـن استبعده الأمل وقرب له الأجل يحسب أن عمره أعوام جليلة، ولم يبق منه إلا أيـام قليـلة، كم من أناس نقلوا من سعة القصور إلى شدة مضائق القبور، ووسدوا صم الجلامد، بعد ما نالوا من الوسائد لقد وعظتنا ألسنة الأحوال لو اتعظنا وأيقظتنا مـن سـنة الغفـلة لو استيقظنا فهيهات هيهات فأقرب قريب ما هو آت، جعلنا الله وإيـاكم ممن تذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات، ومرمل الزوجات، وميتم البنين والبنات ومخلي الديار والقصور، ومعمر القبور إلى يوم الحشر والنشور.

ورضـي الله تعـالى عـن ساداتنا الأعلام، ومصابيح الظلام، أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الذين أقام الله بهم الدين، وقمع بهم ربع الكافرين، أولهم من انعقدت عـلى تقديمه وتفضيله عقائد أهل الصدق والتحقيق القرشي العربي التيمي العتيق،

خـــليفة رســـول الله صلى الله عليه وسلم بإجماع الصحابة من بعده مولانا أبي بكر الصديق وعن السيد الأواب، الناطق بالصواب الموافق لربه في آيات محكمات من الكـــتاب المحدث بظواهر الخطاب وضمائر الغياب أمير المؤمنين مولانا عمر بن الخطـــاب وعـــن معـــدن العلم والعرفان القائم عند إغفاء الأجفان الجامع لمصحف القرآن الذي استحيت منه ملائكة الرحمن وبايعت عنه يد المصطفى بيعة الرضوان وبشر بالجنة على بلوى تصيبه فقال الله المستعان، أمير المؤمنين مولانا عثمان بن عفان.

وعن رابع القوم، وملازم الصوم زوج البتول، وابن عم الرسول، ليث بني غالب، وممزق شمل الكتائب، ملاعب نجوم الألسنة وبروق القواضب الذي لم يجتمع لأحد ماله من المناقب أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب، وعن بقية العشرة الكرام الـــبرره، وانصـــر اللهم أئمة الدين، وفرق شمل أعدائك الملحدين، وسلم الأصحاء وعافي المريضين، اللهم اصلح أوساط بلادنا وأطرافها، وأرجاءها جميعا وأكنافها، واجعـــل في مناهج التوفيق والهدى أعرافها، وأدم صلاحها بخير الدارين وأتحافها، الـــلهم اجعـــل بلادنا من خير البلاد واجعلها آمنة مطمئنة إلى يوم التناد اللهم اردد عنها زيغ أهل الزيغ وفساد أهل الفساد، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا وكريم تحب الكرم فتجاوز عنا واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات.

خطبة الجمعة الأولى :

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

الحمـــد لله الـــذي عزت عزته أولا وأخيرا، وعمت نعمته مومنا وكفورا وأظهرت قدرتـــه ضـــياء وديجـــورا، ووسعت رحمته من ضيع زمانه تقصيرا كم أفقر غنيا وأغنى فقيرا ورحم مسكينا وجبر كسيرا وغفر ذنوبا وستر عيوبا ونور قلوبا وشرح صدورا، وكم فتح بابه لمن كان مهجورا يخافه الملك فيكبر تهليلا وتكبيرا ويجري بأمـــره الفـــلك فيسير تسييرا نطق بتسبيحه وتقديسه كل الكائنات من جماد وحيوان وأرض وســـماوات ، فالســـماوات تقول سبحان من رفعني بقدرته، وأمسكني بقوته وهو ركني وعمادي، والجبال تقول سبحان من قوى بنياني وثبت أركاني وأوتادي،

والعيون تقول سبحان من أجراني وأسال عيوني وعذراني لورادي، والعارف يقول سبحان من دلني عليه وجعل إليه مرجعي ومعادي، والعالم يقول سبحان من فتح سمعي ووفقني في أحكامي وإشهادي، والعابد يقول سبحان من أيقظني في الليل لإقامة أذكاري وأورادي، والمذنب يقول سبحان من أطلع علي وسترني وتاب علي لما تبت وأصلحني بعد فسادي فسبحانه من إله كريم ينزل رحمته كل ليلة إلى سماء الدنيا وينادي : هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأستغفر له، هل من داع فأستجيب له، هل من سائل فأعطيه، وهو الموفق الهادي.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله سيد العرب والعجم، الذي سادت به أمته جميع الأمم وشرفت به مكة وصارت به المدينة حرم، فلا يحصد بها شوك ولا ينفر صيد ولا يهراق دم. أقام بألسنة الملة العوجاء بأن رجعوا إلى الله تقربا وزلفى وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا.

أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا من عاش مات ومن مات فات، اتقوا الله حق تقاته واسعوا في مرضاته، وأيقنوا من الدنيا بالفناء، ومن الآخرة بالبقاء، واعملوا لما بعد الموت قبل أن ياتيكم الفوت، فرحم الله امرأ تزود منها لنفسه، ومهد لوحدته في رمسه قبل أن ينفذ أجله فينقطع عمله قال تعالى ألهيكم التكاثر حتى زرتم المقابر، يقول ابن آدم مالي ومالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت، فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت. وقال صلى الله عليه وسلم في بعض خطبه إن المؤمن بين مخافتين من ربه بين أزل قد مضى لا يدري ما الله قاض فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله صانع فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه ومن قوته لضعفه فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار، فاذكروا الموت فليس منه فوت ألا و أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ومن المواضع التي ينتقم فيها الجبار إلا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه نار حرها شديد، وقعرها بعيد، وحطبها حديد، أهلها جياع لا يطعمون، عطاش لا يشربون، عراة لا يلبسون، في غم لا يفرحون، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون.

خطبة الجمعة الثانية :

الحمــد لله الذي اخترع الموجودات بلا شريك ولا أعوان، وأرسل نبيه وأنزل عليه القرآن، وخلق الإنس وعلمه البيان الذي لا تغيره الحوادث ولا يبليه الزمان، المنزه فــي وحدانيــته عــن الأبــناء، والآباء والجدود المقدس عن الصاحبة والصاحب والمولــود، البصير بحركات الذرة في البحور والليالي السود لا تمثله الأفكار، ولا تحويــه الأقطار، ولا ينهيه المقدار ولا تمر عليه الأعصار، يعلم خائنة الأعين وما تخفــي الصدور ليس بجسم ولا جوهر، ولا عرض تقدس من حجابه النور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة استعد بها ليوم العرض والنشور، وأشهد أن ســيدنا محمــدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم مادام الزمان والدهور، أيها الناس كم تحملون أحمال الأوزار وهي ثقال، وكم تتبعون الشهوات وهي خيال، وكم أنذركم الموت بمن ارتحل من أنواعكم من أنواع الارتحال أين من حصن الحصون وشــيدها أين من جمع الأموال وعددها أين من عمر الحدائق وغرسها، أين من قاد الجيــوش وساسها، أزعجهم والله هاذم اللذات من غير اختيار، وأخرجهم من أهل وأمــاكن حســان إلى القفار، إخواني ولم يهمل واحدا ساعة ولم يداره، وقطعه عن آماله وأوطاره، وحال بينه وبين أعدائه وأنصاره، فتذكروا رحمكم الله يوما تبدو فيه الخيــبة والمصــائب وتضيق عليكم إخواني فيه المذاهب، فاغتنموا رحمكم الله أيام أعمــاركم الخاليــة فســيندم والله أهل القلوب القاسية أترون أسلافكم إلى القبور قد ســاروا وأكثرهم في تجارتهم قد خسروا فمروا عليهم واعتبروا، وتفكروا إخواني واعتــبروا وتذكــروا يوما تتقلب فيه القلوب قبل أن يمسك اللسان ويتحير الإنسان وتشــتد السكرات وتنشر الأكفان وياتي منكر ونكير، ويقوى الشهيق والزفير وتفنى لذة المعاصي، ويبقى أخذكم بالنواصي وتثقل على ظهوركم الأوزار ويؤخذ الكتاب بــاليمين أو باليســار فــبادروا التوبة قبل أن تعاينوا هذه الأهوال والندم على قبيح الأفعــال فســبحان الله ما أعمى منكم البصائر تبادرون بالمعاصي من يعلم خفيات

الضمائر سبحانه وتعالى جل عن النظائر وهو ربنا وخالقنا غفار الذنوب صغائرها والكبائر.هـ

خطبة عيد الأضحى

الله أكـــبر الله أكـــبر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا فيه جزيلا جميلا ما حج حاج واعتمر وبكى ولبى أشعث أغبر و طـــاف بالـــبيت العـــتيق واستغفر، وسعى بين الصفى والمروة وطاف بالبيت وقبل الحجـــر وأزال الـــتفث وحـــلق أو قصر، وأفاض يوم الحج الأكبر، وحل وارتحل وصدر وسن لغير الحاج الذبح فيه فيزيل الشعر ويقلم الأظافر بعدما ضحى بشاة أو بقر.

الله أكبر الله أكبر، الله أكبر فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في الســماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت مـــن الحـــي، ويحيـــي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون، سبحان محيي الموتى ومميت الأحياء، سبحان من دبر الآخرة والأولى سبحان من أحاط علمه بالسماوات العلى، والأراضين السفلى، سبحان من ذلت لعظمته وقوته الجبابرة والكبراء.

سبحان من ساوى في الموت بين الأغنياء والفقراء أكلهم الدود والثرى ومحيت منهم محاســن وصورا، كأن لم يغنوا بالأمس أو لم تملأ بعينيك منهم منظرا أبادهم الذي خـــلقهم، وأســـكتهم الـــذي أنطقهم، وسيجمعهم بعدما فرقهم ويعيدهم بعدما بدأهم، ويسألهم عن الصغير والكبير ويجازيهم على الجليل والحقير إن في ذلك لعبرة لمن يخشى، وتذكر هول القبر وما يلقى، والجواز على الصراط، والنار تحته تتظلى لا يصـــليها إلا الأشقى الذي كذب وتولى، وسيجنبها الأتقى الذي يوتي ماله يتزكى قد أفـــلح مـــن تـــزكى وذكر اسم ربه فصلى، بل توثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبـــقى، فاعتبروا يا أولي الأبصار، واجعلوا دار الفناء زاد لدار القرار ولا تكونوا كـــالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكـــم فيها فاكهة كثيرة منها تاكلون، إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عـــنهم وهـــم فيه مبلسون أي آئسون من الخير ذليلون يا أيها الناس اتقوا ربكم، إن

زلــزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمـــل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، يا أيهـــا الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا يا أيهـــا الـــناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور إن الشـــياطين لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، يا أيهـــا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير قد نرى كم شهد هذا الشهر من لا يشهده بعد، وكم شـــهده مـــن هـــو في ظلمات اللحد فأكرموا هذا الضيف القليل المزار بفعل الخير والاســـتغفار فسيشـــهد بما فعلتم فيه عند الجبار وكذلك كل ساعة من ليل أو نهار فالتقوى تزحزح عن العذاب والمعصية توجب العقاب وتطيل على فاعلها الحساب، يوم القيامة، يوم الندامة يوم القرار إما في الجنة أو النار يوم البكاء، يوم البلاء، يوم عقيـــم، يـــوم عظيم يوم عسير، يوم قمطرير يوم شديد، يوم طويل يوم الخلود يوم مشهود، نجانا الله وإياكم من هذه الأهوال وأتم علينا وعليكم جميع الأفضال. هـــ.

خطبة عيد الفطر

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكـــبيرا. الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيـــه أبـــدا الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهـــو العليم الخبير الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن أن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمســـنا فيها نصب ولا يمسنا فيه لغوب الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده

المؤمــنين الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فــنعم أجــر العاملين وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين الحمد الذي قدر الأعوام والشهور، والأيام ولياليها وفضل شهر رمضان وجعله معظما فيها، وأنزل فيه السور ومثانيها من بيت العزة فلا كلام يحاكيها تفضيلا لهذه الأمة إذ لا أمة تباهيها، وخصها بليلة القدر التي تتنزل الملائكة والروح فيها، وفي أول ليلة منه تفتح أبواب الجنان، وتقبل الحور والولدان، من سائر نواحيها وتغلق أبواب النيران وتصفد الشياطين وتمنع من تدانيها، وفي كل ليلة منه يسلم الرب علي نفوس الصائمين ويحييها، وفي ليلة القدر يقــول جــبريل للملائكة بشروا الصائمين بخيرات لا تستطيع النفوس أن تحصيها، وتصــافح الملائكة الصائمين القائمين وتناجيها ويعتق في كل يوم منه ألف ألف من الــنار، ويعــتق في آخر يوم منه مثل من أعتق في جميع الشهر عند الإفطار، الله أكــبر، الله أكــبر، الله أكبر. يا من أفنى عمره في المعاصي، وغفل عن يوم الأخذ بالنواصــي، تب إلى الله التواب فقد قال في محكم الكتاب وإني لغفار لمن تاب. قد مضــى شــهر رمضان فكأنه ما كان وشهد على المسيء بالإساءة وعلى المحسن بالإحســان، وجعــل لكــل حظه من ربح أو خسران. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر ارغبوا فيما عند الله من الأجر بادروا بالطاعات، وأتبعوا صيام هذا الشهر بستة من شــوال فذلك صيام الدهر وأخرجوا يومكم هذا زكاة الفطر، ومصرفها كل مسكين وذي فقــر ليــس عنده ما يكفيه في العام فبذلك يثبت أجر الصيام قال تعالى : إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم. الآية هــ هــ.

خطبة جمعة أخرى

الحمــد لله المــنفرد بالوحدانيــة في الذات والصفات والأفعال الذي تنزه عن الشبيه والــنظير والمــثال، الموصوف بالقهر والعظمة والكمال الذي لا بد من لقائه، ولا مهــرب عن قضائه، وهو القاهر فوق عباده سبحانه الكبير المتعال المطلع على ما فــي ضــمائر عــباده مــن الخطــرات واللحظات والأقوال المحاسب على النقير والقطمير، والفتيل والفسيل من الأقوال والأعمال، الذي لا بد من الوقوف بين يديه

وســؤاله كفاحا ليس بينه وبين المسؤول حجاب، وترتعد فيه فرائص كل إنسان من شــدة الهول والحساب، فياله من هول وياله من حساب ويغضب فيه الجبار، وتزفر الــنار فيــه ثــلاث زفرات كل واحدة منهن تتساقط الخلائق من هول ما تراه من الإســعار، ولا يــبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه من سطوة القهــار، وتنشــر الدواوين وتوضع الموازين لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب، والــناس في غاية الذل والخوف والندامة، والحرص على موجبات السلامة، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي لا إله غيره، ولا خير إلا خيره، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورســوله، نور الأنوار وزين المرسلين الأخيار، وآله وأصحابه الأطهار، ما أظلم الــليل وأضــاء النهار أيها الناس اعلموا أن الخطباء ثلاثة لمن اعتبر، وكلمهم في غايــة الوعظ لمن تبصر، أحدهم خطيب الجمعة والعيدين يكون قائما على مثل هذا المنبر ويتذكر به من الخطباء من اعتبر وتذكر، وينفع سماع خطبته من أنصت له وتفكــر فــي عقباه ونظر، وأما غيره من الخطباء فلا جدوى له، إلا أن من سمعه تحيــر وتحســر، والثاني من الخطباء خطيب القبر الواقف على شفيره، واقفا على كرســي البرزخ قائلا بتقريره، يا ابن آدم أين فصاحة لسانك ما أعدمها اليوم، أين ظــرافة منطقك فيما يوجب العقاب واللوم أين لفظك الصريح، أين منطقك الفصيح، أيــن قوتك التي كنت تباهي بها الأقوياء، وبها كانت الأرض، وأنت في بطنها أعم غطاء، محيت من الدنيا آثارك وما محيت عنك أوزارك، وانقطع عوادك، واستراح حســادك، دفــنك أهــلك، وانصرفوا كأنهم ماسكنوا معك ولا عرفوا، جمعت المال وتركــته لغيــرك، وبقيت مرتهنا في هوة قبرك، وحشر أولادك في زمرة اليتامى وزوجــاتك بــرزن في زمرة الأيامى، وعد مالك من أموال التركات، وأنت اليوم أحــاطت بــك الخطايــا والسيئات الدانية منها والقاصية، وياليتها كانت القاضية، وستشــاهد بعد هذا ما بلغك من حديث الغاشية، والثالث من الخطباء خطيب البعث والنشور ويوم الندا يقول أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة، والجلود المتمزقة، والشــعور المتفرقة إن الله يامركن أن تجتمعن لفصل القضاء، ويقول يا آدم أخرج من ذريتك بعث النار فيقول يا رب من كل كم؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، وقد فاز يومئذ من جانب البدعة وأخذ بالسنة

فيقول يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فـانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان، فبأي آلاء ربكما تكذبان ثم يقول أيها الناس إن الله جعـل لكم نسبا، وجعلتم أنتم نسبا وحسبا فمن كان على نسب التقى فليات وهو من المفـلحين الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عبادي لا خوف عليكم اليـوم ولا أنـتم تحزنون، ومن كان على نسب غير التقى فلينتظر نسبه، وهو لا محالة من الهالكين ومن تزكي فإنما يتزكى لنفسه و إلى الله المصير، أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير.

خطبة جمعة ثانية :

الحمد لله أحكم الحاكمين، وولي المتقين، وحسيب المعتدين وأكرم الأكرمين وأحسن الخـالقين، ومرشـد المقسـطين، ومضـل الظالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه المخلصين.

أيهـا الناس اتقوا يوما فيه إلى الله ترجعون، يوم يوفيكم أعمالكم فلا تظلمون، يوم يقسـمكم قسـمين، ويجعـلكم فريقين، فريق في الجنة يتنعمون وبالحور والولدان يتمـتعون، وفـريق فـي السعير يعذبون، وفي قعرها يتقلبون فلا يحيون فيها ولا يموتـون تضربهم الربانية بمقامع من حديد، وتلقيهم من العذاب في مكان بعيد، فلا يسـمعون كلامهم، ولا يفهمونه، ولا يبصرون ما هم فيه ولا ينظرونه، وينادون يا مـالك خـازن النار مستغيثين ليقض علينا ربك بالموت بعد أن كانوا له في الدنيا كارهين، فلا يجيبهم إلا بعد ثمانين سنة كل يوم كألف سنة مما تعدون، فيقول إنكم ماكثون لا تخرجون، فيا عجبا كيف يكرمون وأكرم الأكرمين لم يكرمهم، أم كيف يـرحمون وأرحـم الراحمين لم يرحمهم، ثم يذرون الدمع البكاء المديد، ثم يبكون بالقيح الصديد، حتى أنه لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، ثم يقولون هذه الحالة مـا نفعـت بـل أضرت، فتعالوا نصبر خمسمائة عام، ليكشف عنا هذا ويحيص، فيصبرون ولا ينفع ذلك، ويقولون سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص، ثم يدعون ربهم مبتهلين إليه متضرعين، ويقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضـالين، ربـنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، فلا يجيبهم إلا مثل عمر الدنيا

مــرتين، وهــم في لهب، لا ظل ولا ظليل قائلين ربنا أمتنا اثنتين، وأحييتنا اثنتين فاعترفــنا بذنوبنا فهل من إلى خروج من سبيل. فيقول لهم الله تعالى اخسؤوا فيها ولا تكلمون، فيتعاوون وينبح بعضهم في وجه بعض حيث لا صديق ولا شفيع، ثم لا تقــبل لهــم كــلمة بعد هذا إلا الزفير والشهيق، قد أكلت النار لحومهم، ومزقت جلودهم وجسومهم وصيرت حمما عظامهم بعذاب السموم طعامهم الزقوم وشرابهم الحميــم، ولباسهم القطران، تسومهم الزبانية الذل والهوان، لا يرحمون بكاءهم ولا يجيبون دعاءهم قد قطع الغسلين أمعاءهم، يدعون بالويل والثبور، وجهنم من فوقهم ومن تحتهم تفور، والنتن والظلمة وغضب الجبار أشد عليهم من عذاب النار، نعوذ بالله الواحد القهار من جميع المكاره في هذه الدار، وفي تلك الدار.هــ.

عودته إلى تجكجة
بعد فترة البادية

عــاد الــرجل إلى تجكجــة ثانية مستحليا حياة الحل والترحال في ربوعها وعلى جنباتها، فلا يبتعد عنها كثيرا للأسباب الآتية :

1. لأنه اطمأن على أن رسالته العلمية قد بلغت إلى من لم يتمكنوا من الوصول إليها في تجكجة وقد نشر ما شاء الله أن ينشره في القبائل المنتشرة في تلك المــناطق البدوية : تجكانت، إدو الحاج، مسمومه، الأقلال، الطلابة، أولاد الناصر، السواكر أولاد علوش...الخ كما فعل في المدينة.
2. لأنه مرتبط ارتباطا شعوريا بمسقط رأسه وأهله لا يستطيع المرء دفعه عنه مهمــا كــان موقعه ومهما كانت مكانته، ومهما كان مركزه. خاصة وأنه استطاع بحكمته أن يطفئ ثورة مناوئيه من بني عمومته الأقربين حيث ترك لهــم غلالة من ماء الوجه ووفر عليهم تلك المحاولات التي سبقت الإشارة إليها، والتي تغلب فيها الرواية الشفهية، وتضطرب فيها الحكايات...الخ كما سبق أن ذكرناه.

ولكنني ألتمس في الكثير منها حسن المخرج، وأميل إلى أقرب الوجوه إلى الاعتدال في الربط بين أسبابها ومسبباتها حتى أخرجها في ثوبها الحقيقي.

والحقيقة التي تطمئن النفس إليها هي أن الرجل بعد أن بلغ رسالته العلمية في مجالات أوسع من مجال المدينة الضيق حملته ارتباطاته السياسية والاجتماعية على العودة إلى المدينة ثانية، إذ به يتعلق الكثير من شؤون الإمارة المتعددة والمتشعبة التي تحدث حينا بعد حين فهو الحاكم الشرعي (القاضي) في إمارة تكانت بدوها وحضرها فهو المشرع والمنظر والموجه لأميرها والأمير منفذ لأوامره التي تنبني دائما على الشريعة الإسلامية حتى أنه أحيانا ينفذها في الأمير نفسه ولا يملك الأمير رفضها مهما كانت.

ففي مرة من المرات اختصم لديه الأمير محمد بن امحمد شين ورجل من رعيته من قبيلة (إديبسات) المعروفة بالمهارة في قص الأثر. وتقول إنها من سلائل الأنصار.

ادعى هذا الرجل أنه اطلع على أثر نوق في إبل الأمير محمد بن محمد شين هي من نسل ناقة له لم يبع ولم يعط من نسلها قط شيئا، إلا أنه يذكر أنه في عام كذا وفي بلد كذا منذ خمسة عشر عاما كان في حالة هروب عن المغيرين وألفت تلك الناقة حنينها ولا يعلم هل هو ذكر أم أنثى فلعل هذه الرؤوس التي اطلع على أثرها تكون من نسل ذلك الجنين وهذا كل ما لديه من الدعوى فرد عليه القاضي قائلا: البينة على المدعي، طبعا بعد أن أنكر الأمير كل هذه الدعوى فالتفت البصادي إلى أصحاب الأمير وقال أطلب شهادة الله ممن يعلم شيئا يثبت ما ادعيته، فأمر القاضي بالإبل ومرت أمام أعينهم وأخذ البصادي يقص أثر كل واحدة حتى أخرج من الإبل اثني عشر رأسا ما بين كبير وصغير، فانبرى المسمى الراظي بن باها من بينهم وقال أشهد أن هذه الإبل التي أخرجها كلها من نسل جنين التقطناه في هذه المنطقة في التاريخ الذي ذكرت وفي المحل الذي ذكرت وجدناه يتخبط في ردائه على إثر إبل وكان أنثى هي أم هذا القطيع الذي أخرجت من الإبل.

فالـــتفت الأمير إليه قائلا أتشهد علي بابن باها ؟ بلغة تشتم منها رائحة التهديد فقال له: أيها الأمير إني أخافك وأطمع فيك، ولكنني أعلم أن الله قادر على أن يمنعك من إلحـــاق الأذى بـــي، وأنت لا تستطيع أن تمنع الله من عذابي إذا ما كتمت شهادته فاعـــتمد القاضي شهادة ابن باها وجعلها تساوي شهادة عدلين، وقسم الإبل نصفين بيـــن البصادي والأمير وكانت اثني عشر رأسا فما كان من الأمير إلا أن زاد في إكـــرام ابن باها وتقريبه وفي ذلك يقول محمد محمود بن سيدي عبد الله في نظمه مكفر بني حسان :

والبعض منهم مومنون مسلمون   مثل ابن باها والكثير فاسقون

وفـــي حادثـــة أخرى اشتكى الأمير نفسه من محمد محمود بن سيدي لتكفيره لبني حســـان وتنجيســـه لأموالهـــم وممتلكاتهم فما كان من صاحبنا إلا أن استدعى أحد تلاميذه هو تقي الدين بن اطوير الجنة وقال له إن هذا التلميذ لا يلبث في معدته إلا الحـــلال فـــاذهب به معك وأسقه لبن كل ناقة من إبلك والتي استقر لبنها في معدته فهـــي حـــلال، ففعل وحضر معه وقت العتمة وسقاه لبن كل ناقة فصار كلما شرب شيئا قذفه لحينه إلا لبن ناقة واحدة استقر في جوفه فجاء الأمير إلى الشيخ وقال إن هذه الناقة اشتريتها بحصاد زرع كنت زرعته بيدي.

هـــذه الحـــوادث وغيرها كثير من مثلها، تدل على انقياد الأمير العادل لشيخه هذا وخضـــوعه لأوامـــره حلوها ومرها وكان لذلك أثره الطيب على هذه الإمارة، ففي عهد هذا الأمير امتد سلطانها إلى مدينة سيلبابي جنوبا. وسيلبابي هذا تحريف لاسم ولـــد اعـــل بـــاب ول اعمر بن بكار بن محمد بن خون وهو واحد من أبطال تلك الإمارة مدفون في تلك المنطقة فسميت به.

كمـــا امتد نفوذها غربا إلى كيهيدي، و إلى عهد قريب والشجرة التي كانت مربضا لحصان بكار بن اسويد أحمد موجودة هناك كما امتد نفوذها إلى الإمارات المجاورة الأخرى شمالا وغربا حتى ضفاف النهر المعروف بنهر صنهاجة التي حرفت هي الأخـــرى وصـــار يعرف بنهر السينغال تحريفا لصنهاجة واستمر ذلك إلى طلوع المستعمر الفرنسي الذي كان يعطي الأتاوات لأمير هذه الإمارة مقابل وصوله إلى الضفة الشرقية لشراء الصمغ وغيره من أغراضه الأخرى.

كـــان ذلك بفضل تلك العلاقة التي كانت بين محمد بن امحمد شين وسيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم تلك العلاقة التي جعلت الاثنين كانا متفقين على ضرورة قيام حكم إســلامي بــأي شكل من الأشكال، لكن الظروف المحيطة التي سبقت الإشارة إليها جعــلت مثل هذا الحكم أصعب ما يكون تحقيقه في بلاد يقال لها البلاد السائبة، لكن العلاقــة بين الرجلين جعلت الإمارة في تلك الفترة، ومدتها تسعة عشر عاما تحكم حكما إسلاميا رغم ما تلقته من معارضة بني حسان من جهة وأصحاب الامتيازات مـــن الـــزوايا من جهة أخرى لأن الجميع لا يقبلون بمبدإ المساواة مع العامة الذي أقــرته الشــريعة الإســلامية، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر طلب منه صحبي هو سواد بن غزية القود في وكزة وكزه بها في حاضرته، فكشف له صلى الله عليه وسلم عن جنبه الشريف وقــــال له خذ قودك، فانكب الصحبي على جنبه الشريف يقبله قائلا هذا ما كنت أريده لكن أصحاب العروش والامتيازات في البلاد السائبة يرون مثل هذا النظام مضرا بمصالحهم ومن ثم يعارضونه.

كـــان ارتباط صاحبنا محل البحث بإمارة تكانت إلى جانب مشاعره الخاصة حول مدينــته وأهله واطمئنانه إلى تبليغ رسالته العلمية كلها أسباب أدت إلى رجوعه إلى مدينة تجكجة، و إن لم يتخل عن حياة الحل والترحال التي استحلاها، فزوجه خديج بنت اتشفغا أم جل أبنائه، مدفونة شمال المدينة بنحو 2 كيلومتر، وكذلك ابنه محمد عال المدفون جنوب المدينة بنحو أربعين ميلا، وهو نفسه مدفون شرقيها بنحو ستين ميــلا، الشيء الذي يدل على ارتباطه بالمدينة وقربه منها دائما إلى أن وافاه الأجل المحتوم ليلة الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الثاني عام 1233 هجرية تغمده الله بـــرحماته وأسكنه فسيح جناته عن عمر يناهز الثمانين سنة كلها تعلم وتعليم يقول ابنه سيدي محمد مؤرخا لوفاته :

قضى أبي السيد عبــد الله   في سنة البشر على انتبــاه
ليل حيي من ربيع الثانـــي   بعد غروب الشمس والأذان
وليلة الوفاة تدعى الجمعــه   جمعنا الله في جنة معـــه
ولاح في الثاني بعيد الخمسين   ضوء جبينه إلى الثمانيـــن

وقد نعى نفسه بنحو 10 ايام قبل موته بالبيتين التاليين عند آخر قضاء قضاه فقال :

ما كنت أحسب أن الشمس قد أفلت حتى رأيت الدجى ملقى على القمر

ناشدتك الله في حفظ الوداد فقـــد بانت سليمى وهذا آخر الخبـــر

المراثي

وقد رثاه ابنه محمد محمود بقصيدة هذا نصها فيما يلي :

افاض على جأش و شاك جنـــان دماء شؤوني أعظم الحدثـــان

سقاني كؤوسا من طلاء و علقـــم فأمرر بما قد كان منه سقانـــي

و غادر نارا في حشاي تأججـــت و سم حباب ذا أذى و هـــوان

وأرهقني أمرا فما ليس لي بـــه ولا للجبال الراسيات يـــدان

و جشمني أضناه و قل له الضنـــا وصمت من الإصغاء له آذانـــي

تداجي له ليل التمام ومهـــــدت مضاضته جمر الغضا بمكانـــي

بصولية ليلا كأن نجومهـــــا بأمراس كتان و قد مثـــان

أو التبست وهنا عليه بروجهـــا فحل شآم البرج برج اليمانـــي

أما ونصيص اليعملات لمكـــة وسبح ذوات الدمع و الذمـــلان

أقل لعيني ثج قاف كعنـــــدم مدى هوديها و انسكاب جمـــان

وماذا الأسى سخطا لما خط سابقـــا على وفق علم الله جري لســـان

بلوح من التبديل عن حفظ حافـــظ ولا أنه يخشى عليه زبانـــي

و لكن شجا قلبي تايم عزلـــــة عفائف لم تلمس بوجه بنـــان

من الفقه والتصريف في النحو حرمت على الصب ذي الأسواق والهيمان

وقد عرجت ساق القواعد بعـــده كما كسفت أنوار شمس البيـــان

وليس لخرطوم البديعين راضـــع ولا الصبح أيضا من ثدي المعاني

وعينا أصول العلم ما تنعما معـــا كعيني حديث المصطفى تكفـــان

ولا نطق إلا همهمات لمنطـــق ولا لكلام بعده صـــــردان

كما اعترج العرجان اسمال مهنـــة — وكانا بنتاج العز يعرجـــــان
وتضمير وحي الله لم يدر بعــــده — ولم يعلم التوحيد ما يعمــــلان
و إيضاح علم للفرائض بعــــــده — وإن قل بعد قاص منــــــه ودان
و ما عاقر أرض القريض بآلـــــة — خليلية الإنشاء من بعد ثـــــان
وأضحى اجتهاد مطلق منه مطلقــا — فأعينه خزر إليـــــــه روان
فهذي الفنون والحقيقة في الأســى — عليه سجيس الدهر مشتركــــان
فإشراكه بين الطريقين شركــــــة — على شرطها موصولة بعنــــان
فما كنت ممن غره زخرف الدنــا — و لذاتها اللائي كدلف لســــان
فإنك لم تقبل على زرجونهـــــا — ولم تجن أحلى ينعها المتدانـــي
ولكن على الأخرى فأنزعت وفرها — و أمرعتها برا بغير تـــوان
وعلقت حول الرحل أي مـــزادة — قد أتقنتها مسلوقة بدهــــــان
وسرت حثيثا منجدا ومغــــورا — تجوب الفيافي لم تنخ بمكــــان
إلى أن لقيت الله جل جلالــــــه — علا وتعالى عن شريك و ثـــان
فلست بفان إذ بنيت منــــــارة — تفوق السها والنجم والخرســـان
وأبقت ما لم يفنه الدهر من هدى — و لكن جميع الخير بعدك فـــان
جزاك إله العرش عفوا يشوبـــه — كذا وكذا من رحمة وحنــــان
وعوضت عن أهليك حورا نواعما — وعن هذه الديران دور الجنـــان
يطوف بك الولدان بكرا و مسية — على زخرف وعبقري حســـان
بكأس وأكواب يجيئك بعدهــــا — حوار بأكواب وضرب كيـــران
عليك ثياب من حرير و سندس — واستبرق في سورة و أمــــاني
وبورك في الأبناء بعد و ألحقوا — من الدين والدنيا بكل الأمـــان

وقد رثاه ابنه وريث علمه وحلمه بدر الدجى صاحب الحجا فارس الصنعة ومجلي رهان الحلبة سيدي محمد بالقصيدة التالية :

هو الدهر لا يثنيه عن عزمه ســـد — يروح ويغدو يعتمي من له جـــد
هو الدهر يدهو من رمى و بنبلـــه — يؤم كرام الناس يعدو و يرفـــد
هو الدهر لا يغررك منه تبســـم — فما القرب إلا النأي والهجر والصد

هو الدهر مثل المنجنون بأهلـــه و ما لامرئ عما يدور به بـــد
فشأن الفتى صبر على ما ينوبـــه فأوله صاب وآخره شهــــد
يرى الرجل الجلد العظيم بعينـــه صغيرا وصبر الجلد إن يفجأ الإد
ولو كان غير الصبر يحسن بالفتى لأترع جفني من دموعي و الخد
لا مر يذيب القلب والصدر سمعه ومن سمعه كل المسامع تنــسد
تضعضعت الأرضون واغبروجهها و كادت بها شم الشمارخ تتهــد
وأصبح وجه الأرض يحسد لحدهـا وقد كان ذاك الوجه يُحسده اللحد
على البدر شمس الدهر إنسان عينه أضاءت به الأرجاء واحلولكنت بعد
منار أبان الدين بعد خفائــــه فأصبح ضوء الدين يعلو و يمتد
تقي نقي لوذغى غطمطــــم أمام همام عالم علم فـــرد
حسلم يمان غمده الحلم والتقــى مجن لنا دون المكاره بل ســد
خضم فحدث عنه لست بكـــاذب و يقصر عنه زجر البحر و العد
له همة لم يعطها الله غيــره فليس له ند و ليس لها حــد
جزاه إله العرش خير جزائــه عن الدين والدنيا فنعم هو العبد
وأنزله أعلى المنازل عنــده به الراح والريحان والروح والخلد
وأحيا به أرضا بها فهو الحيـا وروى ثراها واستهل بها الرعـد
ولا زال واديها مريعا مباركـا يصوب به سيب و يجري به مـد
هنيئا لك الفضل الذي سار ذكـره فقد حل فيك البدر و البحر والنـد
عليكم سلام كالرحيق من ابنكـم يفوح بنشر المسك ما طلع السعـد

فهرس المراجع

1. الدر الخالد في مناقب الوالد
2. هدية الصمد في مناقب الجد
3. فتح الشكور في علماء التكرور
4. الوسيط في تراجم أدباء شنقيط
5. نشر البنود على مراقي السعود
6. صحيح النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد قل
7. معجم الأدباء
8. الدلقينية
9. مجدد العوافي في رسمي العروض والقوافي
10. نزهة المستمع واللافظ في مناقب الشيخ محمد الحافظ
11. غرة الصباح
12. خارطة موريتانيا
13. وفيات الأعلام
14. إمارة إدوعيش
15. تنوير قلوب المسلمين بتاريخ أمهات المؤمنين
16. مبصر من به عمى

17. زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم

18. طرد الضوال والهمل

19. رحلة المنى والمنة

20. حوليات مسجد تجكجة

21.

22.

23. مظاهر الوعي القومي عند مثقفي بلاد شنقيط

24. صالح بن عبد الوهاب

25. موسوعة المختار ولد حامد

26. قبض الفتاح على نور الآقاح

27. خير الدين الزركلي

فهرس الكتاب

أحمدو ولد ممون

المؤلفات :

1- السحر الحلال في مستعذب الخلال

2- المرأة في الإسلام

3 – القطيع الضائع قصة قصيرة

4 – محطبة الليل (مخطوط)

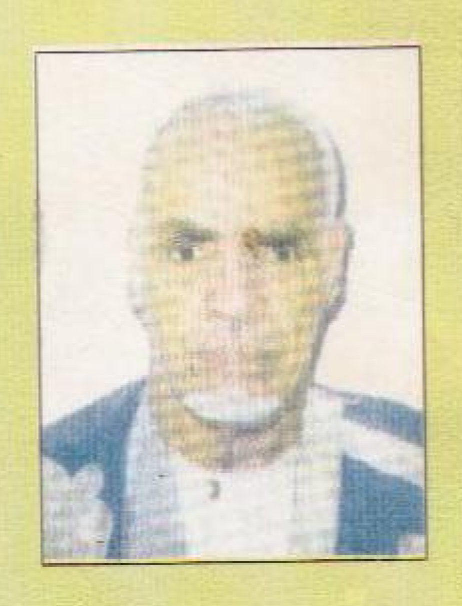
5- هبة الخلاق في مكارم الأخلاق

6- فتح العليم في معرفة سيدي عبدو الله بن الحاج ابراهيم

7- النور الساطع في معرفة النجوم والمطالع

8- العذب الزلال في البكاء على الأطلال (ديوان دارج)

9- ديوان شعر عربي فصيح قيد الإنجاز



أحمدو بن ممون

مولود سنة **1937** في تجكجة، أكمل دراسته في المدارس الأهلية (المحاظر) ثم التحق بالتعليم النظامي سنة **1961**. ثم انتقل إلى الخارج في بعثة رسمية من سنة **1964** لغاية **1967** في كلية التربية جامعة عين شمس بالقاهرة، ثم عاد إلى الوطن فعين استاذا في الثانويات الوطنية ولم يلبث أن عين مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية العليا بمعهد بتلميت من سنة **1972** لغاية **1979** وظل ينتقل مديرا بين المدارس الثانوية حتى أحيل إلى التقاعد سنة **1991**.

له من المؤلفات :

1- السحر الحلال في مستعذب الخلال

2- المرأة في الإسلام

3 - القطيع الضائع قصة قصيرة

4 - محطبة الليل (مخطوط)

5- هبة الخلاق في مكارم الأخلاق

6- فتح العليم في معرفة سيدي عبدو الله بن الحاج ابراهيم

7- النور الساطع في معرفة النجوم والمطالع

8- العذب الزلال في البكاء على الأطلال (ديوان دارج)

9- ديوان شعر عربي فصيح قيد الإنجاز

